أشعار توفيق الحكيم

إبراهيم عبد العزيز

الناشـــر

دار قبـــاء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبده غريب

الكتــــــاب : أشعار توفيق الحكيم
المؤلــــف : إبراهيم عبدالعزيز
تاريخ النشر : ١٩٩٨م

الناشـــــر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
عبده غريب
شركة مساهمة مصرية
الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون
الدور الأول - شقة ٦
ت ، : ٢٤٧٤٠٣٨ ، ٢٤٠١٧٤٣
فاكس : ٢٤٠١٧٤٤
التـــوزيـــع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)
ت : ٥٩١٧٥٣٢ ص. ب : ١٢٢ (الفجالة)
المركز الرئيسى : مدينة العاشر من رمضان
المنطقة الصناعية (C1)
ت: ٠١٥/٣٦٢٧٢٧ ص.ب : ١٢٢ (الفجالة)
رقـم الإيـــداع : ٩٨/١٣٣٥٣
الترقيــم الـدولـى : ISBN
977-303-098-2

المحتويات

إهداء ....

إلى والدى

عبدالعزيز

فى محنته

التى كشفت

زيف الأقنعة !

توفيق الحكيم وقضية الشعر

ما هـي علاقـة توفيـق الحكيـم بالشـعر والشـعراء؛ ليتحـدث فيـه حديـث العـارف النـاقد الـذى يؤصـل لـه وينشـيء لـه مذهبـا فـي نظريتـه "التعادليـة"، ويكتب مقدمات لدواوين شـعرية [1] ويخـوض آخـر معاركـه مـن أجـل إيجـاد شخصية عربية للشعر العربى الحديث، لها جذور وأصول عربية لا أجنبية؟

إن الحكيم يرى أن ناقد الأدب يجب أن يمارسه ونـاقد الشعر يجـب أن يقرضـه، وهو فى ذلك مثل "سومرست مـوم" الروائـى الإنجليزى الـذى كتـب يحذر من خطأ الاعتماد على نقاد من غير الأدباء المبدعين؛ لأن النـاقد الـذى لايعمـل بنفسـه فـى حقـل الأدب الخـلاق يحتمـل أن تكـون خبرتـه فـى صنعـة الرواية بسيطة؛ لذلك فهو يعتمد فى نقده علـى انطباعاتـه الشـخصية التـى قـد لاتكون ذات قيمة تذكـر، أويصـدر أحكامـا مبنيـة علـى أسـس جـامدة، وعلـى الروائى أن يتقيد بها إذا ما أراد أن يحوز قبول الناقد.

وهكذا كان رأى توفيق الحكيم أيضا مما نلمسه فـى حديثـه فـى "زهـرة العمر" عن العرب والأجانب "الذين قضوا حياتهم ينقدون فنوناً لـم يمارسـوها قط بأنفسهم، حتى العرب ونقـاد الشـعر العربـى فـى آدابنـا مثـل "الأصمعـى"، و"حمّاد عجرد" لم يمارسوا هذا الفن مع روايتهم لكل ماقيل فيه، وإنـي لأذكـر قـول أحـد نقـاد العـرب هـؤلاء، وقـد سـألوه (...): لمـاذا لايقـرض الشـعر؟ فأجاب: أنا كالمسن يشحذ ولايقطع"!

إذن فهل مارس توفيق الحكيم الشعر كى ينقد الشعر؟

ينبغـى للإجابـة علـى هـذا السـؤال أن نتعـرف علـى بدايـة علاقـة الحكيم بالشعر ؟

* * *

---

(١) ديوان "أوراق من حديقة أكتوبر" لفاروق جويدة، وديوان "حب أو لا حب" لعبدالعزيز شرف.

كان اتجاه الحكيم منذ بواكير حياته الثقافية الأولى يتجه نحو قراءة القصص والروايات خاصة المترجم منها، ولكن هذا الاتجاه لم يلق قبولا من والده الذى كان يريده أن يتجه إلى الشعر ويجعله جزءا من ثقافته على غير رغبة ابنه واهتماماته، مما جعله يكره الشعر ويبتعد عنه بعد أن صار بينه وبين الشعر دم مسفوك !

يروى توفيق الحكيم هذه الحكاية من ذكريات "سجن العمر" :

أذكر ذات يوم – قبل التحاقى بالتعليم الأميرى المنتظم – كان يوم جمعه.. وقد ارتدى والدى جلبابه المنزلى وتناول إفطاره وقرأ جريدته، ولم يجد بعدئذ مايفعل بوقته فنادانى قائلاً :

"تعال أمتحنك!..." وناولنى كتاب "المعلقات السبع".. ذلك الكتاب الذى كان يحبه هو ويترنم بأبياته.. وأخرج لى معلقة زهير بن أبى سلمى. وطلب إلى أن أقرأها بصوت مرتفع. فلما وصلت إلى ذلك البيت :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة ∴ يغرس بأنياب ويوطأ بمنسم

سألنى عن معنى "يصانع"..؟ فلم أوفق إلى إجابة صحيحة.. وأين لمن كان فى مثل سنى وقتئذ أن يعرف حقيقة "المصانعة" فى الحياة، وهو يجهل الحياة نفسها، وعلاقة الناس بعضهم ببعض، فى ذلك المجتمع المعقد المتشابك، فلما لم أجب بما يقنعه رفع كفه وضربنى على وجهى ضربة أسالت الدم من أنفى.. وجاءت على الصوت جدتى التى كانت تحبنى، فصاحت به، وأخذتنى من يدى إلى حجرتها.. وأنا ألعن المعلقات وأصحابها.. بل ألعن الشعر كله. وكان من الطبيعى والمنطقى أن أحبه كما أحبه أبى، ولكن الدم الذى سال من أنفى بسببه، بغّضه إلى نفسى مدة طويلة.. وكيف كان يمكن أن أحبه وقتئذ وبينى وبينه دم مسفوك! كرهت الشعر فى تلك المرحلة".

وقد ساهمت مراحل التعليم التى مر بها توفيق الحكيم فى المدارس الابتدائية والثانوية فى ابتعاده عن الشعر بل عن اللغة العربية نفسها :

يتساءل ويجيب فى "زهرة العمر" : "لماذا؟ السبب بسيط : هو أن النماذج التى وضعت فى أيدينا – ونحن صغار – للبلاغة فى اللغة العربية كانت كتباً غثة المعنى متكلفة المبنى" أسلوبها "أسلوب غايته قبل كل شئ أن يبهر السمع النائم ويطرب الأذن المسترخية" ويتساءل "أيجوز أن تجعل لغة من اللغات وسيلة لهو وأداة براعة كفنون المغنين، وألعاب الحواة، أم أن اللغة أداة يسيرة لنقل الأفكار النبيلة؟"

ويرى الحكيم أن جلال اللغة اللغة العربية فى بساطتها وسيرها قدما نحو الغرض، نجدها فى كتابات الفلاسفة والمؤرخين العرب، كابن خلدون، والطبرى، وابن رشد، والغزالى، ويتساءل الحكيم مندهشا كيف أن هؤلاء "لم يُعرضوا علينا قط فى دراساتنا للأدب العربى بالمدارس" ولعل سؤاله هذا فى "زهرة العمر"، يظل قائما ومجيبا عن مشكلة اللغة العربية التى لانزال نشكو منها حتى اليوم – ونحن نودع القرن العشرين – ويزيد الحكيم الأمر وضوحا حين يقول إن "كل كاتب عربى بسيط الأسلوب نافع لنا فى الحياة يقصونه إقصاءً بحجة أنه غير بليغ! ويأتون إلينا بالكاتب الذى لاينفع فى حياتنا إلا نموذجا لإثارة السخرية".

ويصل الحكيم إلى مفتاح اللغة العربية ومفخرتها وهو الشعر "الشعر الذى كان يجب أن ترى فيه نفوسنا المتفتحة أول لون من ألوان الفن.. ماذا انتخبوا لنا منه؟ قصائد المواعظ والحكم!

هنالك حقا أنواع من الموعظة والحكمة يعرف الشاعر الحق كيف يلبسها ثوبا من الصور الحسية والذهنية، ترفعها إلى مرتبة الفن العالى.. كما فعل "أبو العلاء" و"المتنبى" و "النابغة الذبيانى" فى بعض قصائدهم، ولكن الفرز والتمييز والتخير فى هذا الباب يحتاج إلى حاسة فنية لايملكها القائمون

بهذا العمل.. حتى الشعر الموسيقى والشعر التصويرى الذى عرضوا علينا بعض نماذجه – فى أعمال "البحترى" و"ابن الرومى" على الأخص – لم يكن من خير آثارهما"(١).

* * *

تلك كانت ذكريات الحكيم الأليمة مع الشعر فى مراحل الدراسة، ولكن المدهش كما يقول الحكيم نفسه فى "سجن العمر" أنه عندما قامت ثورة ١٩١٩ لم يتجه مثل بعض زملائه ومعارفه إلى الخطابة أو كتابة المنشورات بل "كان اتجاهى إلى تأليف الأناشيد الوطنية الحماسية وأحيانا كنت ألحنها بنفسى مسترشدا فى التلحين بأنغام تلك الموسيقى الجنائزية التى كانت تعزفها فرقة "حسب الله" "الأصلى" أمام نعوش ضحايا المظاهرات".. "وقد انتشرت بالفعل بعض تلك الأناشيد إلى حد أدهشنى". لقد ترددت الأناشيد التى ألفها الحكيم، فى أحياء بعيدة، ومدن بعيدة كالإسكندرية، يرددها الشباب دون أن يعرفوا مصدرها.

ويذهب الحكيم إلى أنه "يخيل إلىَّ أنى نظمت أيضا بضع قصائد من الشعر فى الحركة الوطنية" ولكنها ضاعت ونسيت كأناشيد الثورة التى وضعها الحكيم.

ولكن لماذا كان التحول من كراهية الشعر إلى التعبير به والمشاركة من خلاله فى ثورة ١٩ التى كان الحكيم أحد أبنائها؟

لا إجابة على هذا السؤال سوى أن الشعر هو الوسيلة الأسهل والأسرع من أى وسيلة أخرى للتعبير والانتشار.

أما كيف يعبر معبر بوسيلة يكرهها، فالجواب أن الكراهية للشعر عند الحكيم فى مراحل حياته الدراسية صنعتها الظروف والملابسات التى أشرنا

---

(١) زهرة العمر.

إليها سابقا، ولكن الشعر لم يكن مكروها فى ذاته عند الحكيم، وإنما هى كراهية فرضتها عليه ظروف خارجية وإن بقى حب الشعر بداخله وجزءا من تكوينه النفسى والثقافى بدليل أنه وجد نفسه مدفوعا بوسيلة الشعر دون أى وسيلة أخرى للمشاركة فى ثورة الشعب الذى هو أحد أبنائه.

ولكن لماذا لم يستمر الحكيم فى استخدام الشعر كوسيلة فنية وأدبية للتعبير عن إبداعاته، لقد استخدم الفن التمثيلى والروائىوترك الشعر جانبا.. فهل كان فى مرحلة الاختيار والمفاضلة؟

لندع الحكيم بنفسه يفسر لنا فى "سجن العمر"، سر اتجاهه إلى طريق غير طريق الشعر.

"إنى لأتساءل أحيانا لماذا لم أتجه إلى الشعر للتعبير عن عواطف الشباب كما فعل والدى فى شبابه.. كيف أستطيع ذلك أنا أيضا على نحوما.. لم تكن القدرة على النظم تعوزنى... ولا العجز عن الأداة اللغوية .. فقد كنا فى أهم مراحل حفظنا للكثير من النماذج الشعرية وكان غير قليل من زملائى ينظم الشعر بسهولة... لا أقصد عن موهبة.. بل لمجرد المحاولة"

ويجيب الحكيم "ليس عندى سوى تعليل واحد، هو أن الشباب يلجأ إلى الشعر تلبية لنداء الفن فى أعماقه.. فبعض النفوس التى يستيقظ فيها شيطان الفن تحاول أن تجد له مخرجا وثيابا، والشعر أقرب تلك الأثواب تناولا للشاب.. فالنموذج أمامه فيما حفظ من شعر الشعراء وما عليه إلا أن يسير على الدرب.. هذا إذا لم يكن هناك ثوب آخر كالموسيقى أو الرسم أو التمثيل حل فيه الشيطان من قبل... وتلك كانت حالتى.. فشيطان الفن عندى كان قد ارتدى ثوب التمثيلية قبل أن يلتفت إلى ثوب القصيدة الشعرية، ولما حل فيها كمن واستقر ولم يعد يفكر فى الخروج إلى غيرها من أثواب وأشكال"

هذا فضلا عن أن الحكيم كان فى اتجاهه للتمثيلية الأدبية والرواية والقصة مؤسساً لقوالب أدبية جديدة فى الأدب العربى.

ولكن شيطان الشعر ظل يطارد الحكيم محاولا أن يجد له مكانا بين فروع إبداعاته المتعددة.

* * *

فى الوقت الذى حدد فيه توفيق الحيكم طريقه الفنى نحو "التمثيلية الأدبية" كان الشعر أو مايشبه الشعر ينازعه ويحاول السيطرة عليه متأثرا فى ذلك بالنبع الأول وهو النبع القرآنى الفريد، ثم بالفن الحديث.

فأما النبع الأول فإن الحكيم يتذكر "من حيث الشكل، كيف كان القرآن يثير فينا التأمل بأسلوبه الفريد. لاهو بالشعر المنظوم. ولا هو بالنثر المرسل. لكنه طاقة شعرية وموسيقية معجزة"[(١)] .. "هذا الإعجاب ترك فى نفوسنا أشياء.. وربما، بدون أن نشعر، كانت تعيش دائما فى أعماقنا ذكريات هذا الشكل الفريد"[(٢)]

أما المؤثر الثانى الذى جعل توفيق الحيكم تنازعه نفسه نحو الشعر أو مايشبه الشعر، فهو الفن الحديث بداية بالفن التشكيلى- يقول الحكيم "كنت يومئذ تحت تأثير مدارس التصوير الثائرة"[(٣)].

ويزيد الحكيم الأمر إيضاحا حين "اتجه هذا الفن الحديث إلى تعميق هذا الشئ الخفى، فأصبح التصوير مجرد بقع لونيه، والنحت بقع كتليه، والموسيقى بقع صوتيه، والشعر بقع لفظية. (كلمة البقع هنا تعبير خاص عن انطباعى الشخصى) ونتج عن ذلك نوع من الفن يتصل مباشرة بالعين أوبالأذن دون أن يمر بالعقل"[(٤)].

---

(١) رحلة الربيع والخريف.. لتوفيق الحكيم.

(٢) نفسه.

(٣) السابق.

(٤) مقدمة "ياطالع الشجرة" لتوفيق الحكيم نقلا عن "رحلة الربيع والخريف" للحكيم نفسه.

وهنا يضع الحكيم أيدينا على بداية محاولاته التى يسميها فى مقدمة الطبعة الأولى من "رحلة الربيع والخريف" – قصائد شعرية نثرية – ثم يقف حائراً فى مقدمة الطبعة الثانية لنفس الكتاب متسائلا "لست أدرى إلى أى مذهب شعرى بالضبط يمكن أن ينتمى هذا النوع".

يقول الحكيم متأثرا بالفن الجديد الذى تحدث عنه "ولقد أغرانى هذا الفن الجديد فى السنوات العشرين من هذا القرن – وأنا فى باريس – بالشروع فى المحاولة.. فكتبت بضع قصائد شعرية نثرية من هذا النوع، وهو لايتقيد أيضا بنظم ولابقالب معروف. أهملتها فيما بعد بالطبع.. لأن اتجاهى الأصلى كان إلى المسرح"(١).

ولكن الحكيم الذى مزق أكثر ما كتب فى هذا المجال احتفظ لنا ببعضه ليسجله فى كتابه "رحلة الربيع والخريف" فيقول فى "مقدمته من تلك الأعمال التى مزقت أكثرها لم أعد أعثر إلا على هذا القدر من مقطوعات. بعضها مكتوب فى الأصل على النسق النثرى المتصل الجمل والفقرات"

وما أثبته توفيق الحكيم فى "رحلة الربيع والخريف" مما يتأرجح بين تسميته "قصائد شعرية نثرية" أو تساؤله الذى يطرح تسمية أخرى" إلى أى مذهب شعرى بالضبط يمكن أن ينتمى هذا النوع " يحدد الحكيم تاريخها فيما بين ١٩٢٦ – ١٩٢٧، فهل لوكان الحكيم قد نشر مقطوعاته المشار إليها، فى حينها بصرف النظر عن مستواها الذى ينظر إليها به اليوم، كان قد سبق مؤسسى الشعر الحر فى العالم العربى باعتباره واضعا النموذج الأول كما وضع نموذج التمثيلية الأدبية ، والرواية، والقصة ، الذى خرج من عباءته مبدعو المسرحية والرواية والقصة بعد ذلك؟

إن السؤال قد يبدو مطروحا بأثر رجعى، ولكنه يظل مطروحا لدراسة ما كتب الحكيم فى مجال "الشعر، أو الشعر المنثور، سمه ماشئت، وأقول كما

---

(١) السابق.

قال الحكيم نفسه "فأنا هنا بالطبع لن أستطيع تحديد موضع هذه المقطوعات من الشعر عامة ومن شعرنا الحديث خاصة"[1] .

ويبدو إلحاح السؤال عن تقييم الحكيم شاعراً بقدر إلحاح الحكيم نفسه على أنه كتب الشعر أو مايشبه الشعر بشهادة النقاد الأجانب أنفسهم حتى فيما لايقع تحت تصنيف الشعر كمسرحية "شهر زاد" (١٩٣٤) للحكيم حيث كان هناك "من وصفها بأنها وشى فنى عربى كما ذكر جورج ليكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى مقدمته لها"[2].

ولكن توفيق الحيكم الذى يقدم نفسه فى "رحلة الربيع والخريف" كشاعر أوشبه شاعر كان حريصا على تحديد المقطوعات التى كتبها بتاريخ كتابتها فى العشرينات (١٩٢٦ - ١٩٢٧) ثم خوضه آخر معاركه الأدبية فى حياته مع الشعر والشعراء، هو نفسه توفيق الحكيم الذى يفاجئنا بديوان شعرى كامل يكتبه باللغة الفرنسية ويسميه "قصائد عربية" صراحة فى غير تردد أو مواربه كما فعل فى "رحلة الربيع والخريف" مضمنا إياه "أى هذ الديوان" كثيرا من المقطوعات التى نشرها فى "رحلة الربيع والخريف" مما يؤكد قناعة الحكيم نفسه أنه كان رائدا للشعر العربى الحديث وإن لم يجرؤ على أن يقول ذلك؛ لأنه نشر مقطوعاته التى تردد فى تسميتها، فى وقت متأخر على ظهور الشعر الحديث فحاول أن يؤصله فى معركته مع الشعراء وهى آخر معاركه الأدبية قبل رحيله بوقت قليل، والتى أدار صاحب هذه السطور رحاها على صفحات مجلة "الإذاعة والتليفزيون" التى عمل بها ولايزال، حيث بدأت المعركة بعنوان

"الحكيم يفتح ملف الشعراء"

متسائلاً :

---

(١) السابق.

(٢)السابق.

الشعر العربى الجديد صدى أوربى فمتى تكون له شخصيته الأصيلة؟".

وللحقيقة والتاريخ فقد كان توفيق الحكيم نفسه هو صاحب المعركة ومفجرها حينما وجدته ذات يوم فى إحدى لقاءاتى المتكررة معه خلال الخمس سنوات الأخيرة من صحبتة الجميلة، إيمانا منه بتواصل الأجيال، وقد قدم إلىَّ ثلاث صفحات مكتوبة بخط يده بالقلم الرصاص الذى اعتاد أن يكتب به، وقد جعل لسطوره عنوان "توفيق الحكيم وقضية الشعر" لأبدأ بها معه معركة استمرت لمدة ستة أسابيع اشتبك فيها الحكيم مع الشعراء التقليديين والمحدثين، والنقاد، بما يؤكد أن توفيق الحكيم قد جعل من الشعر فى حياته "قضية" كما أسماها بنفسه، مما يؤكد على مكانة الشعر ومنزلته لديه.

ومن المهم أن نسجل هذه المعركة الشعرية ونستعيدها لتبقى دليلا على أهمية الشعر فى حياة توفيق الحكيم الأدبية، حتى لاتبقى مجهولة بين صفحات مجلة "الإذاعة والتليفزيون"، ولتضيف إلى تأريخنا لحياة توفيق كشاعر له ديوان مطبوع مجهول وهى المفاجأة التى نقدم لها بعد إثبات معركة الرائد الكبير كما جرت فى حينها.

* * *

توفيق الحكيم يفتح ملف الشعراء

كتب الحكيم يقول تحت عنوان "توفيق الحكيم وقضية الشعر(*) روى أن الشاعر "كيتس" نهض ذات ليلة، فى احدى الولائم، رافعا كأسه بهذا النخب الغريب : اللعنة على ذكرى (نيوتن).. فلما سأله الحاضرون عما قصد؟ قال : لأن نيوتن أفسد نظريتنا الشعرية إلى قوس قزح، حين فسره لنا التفسير المادى.. فشرب الحاضرون عندئذ - وكانوا من الشعراء - على لعنة نيوتن.. على أن الأيام أثبتت لنا بعدئذ أن العلم لم يستطع هدم "الشعر"، كما أنه لم يستطع هدم "الدين"..

(*) مجلة الإذاعة والتليفزيون ١٤ ديسمبر ١٩٨٥ - العدد ٢٦٤٨.

توفيق الحكيم وقضية الشعر

قضية الشعر العربي عند توفيق الحكيم قديمة، وإن لم يكن قد كتب فيها كثيراً. لأن اهتمامه كان موجهاً إلى القوالب الجديدة في أدبنا الحديث مما ليس له تراث يحتذى من شكل الرواية والمسرح في وقت كان المجتمع الجديد في حاجة إلى هذه القوالب الجديدة... أما الشعر العربي فهو تراثنا الخالد الراكز في نفوسنا وعقولنا ولم يكن محل مناقشة ولم تكن قد ظهرت له قضية معاصرة تستدعي البحث أو الاهتمام... إلى أن ذهب توفيق الحكيم إلى باريس في أوائل العشرينات فصادف ذلك ظهور السوريالية التي ولدت وأعلنت قبل وصوله بشهر أو شهرين. وكان من نتيجتها تحطيم الشرعية القائمة السائدة في الفن والأدب. فحطمت فيما حطمت قواعد الشعر التقليدي فيما سمي "الشعر الحر".. وانتشر في انجلترا وغيرها من بلاد أوروبا. وكان توفيق الحكيم قبل وصوله باريس من الملازمين لمسجد السيدة زينب يسمع "القرآن" ويتفكر فيه ويتأمل ما أبدعه الله فيه من "الشكل". وكيف كان له تأثير في النفس العربية بأسلوب غريب: لا هو بالشعر المنظوم ولا هو بالنثر المرسل. لكنه له قافية شعرية وموسيقية معجزة... وجعله ذلك ينصرف عن الشعر السوريالي الجديد الذي كاد يجتذبه ويقلده في بعض ما كتب وقتذاك، ويتجه إلى المصحف الذي كان يحمله معه، وينظر إلى صوره بإعجاب. ومنها صورة الخيول وهي تعدو ضبحاً أي صوتت أنفاسها في جوفها من العدو... قالت الآية الكريمة في سورة "العاديات":

والعاديات ضبحا
فالموريات قدحا
فالمغيرات صبحا
فأثرن به نقعا
فوسطن به جمعا
إن الإنسان لربه لكنود

واستلهم توفيق الحكيم من هذه الآية شعراً كتبه عام ١٩٢٦ قال فيه:

تنفس صبح من أنوف خيول
تعدو لاهثة في وهاد تمشي
أسمع في أعماق الصهيل
امنوحا من اللحن بأسى
أنا في غيوم تمرده

الصفحة الأولى من مقال توفيق الحكيم والذى فتح به ملف قضية التأصيل للشعر الحديث وإن بدا أنه عند النشر قد كتب مقدمة جديدة غير تلك التى احتفظ بها وننشرها هنا للمرة الأولى.

فالحقيقة الفنية والحقيقة الدينية تستطيعان الحياة على الرغم من ظهور الحقيقة العلمية.

هكذا ينظر شيخ المفكرين توفيق الحكيم، إلى الشعر كفن خالد عندما عبر عن رأيه هذا فى "فن الأدب" منذ أكثر من ثلاثين سنة، موضحا أنه رغم معرفتنا مثلا بحقيقة القمر كجرم ميت لا ماء فيه ولاحياة، الا أن هذه الحقيقة العلمية لن تمنعه من التأثير فى نفوسنا الشاعرة.

تحطيم المفاهيم السائدة

وهذا اليقين بحياة الشعر الدائمة وأهميته فى حياتنا الأدبية، هى قضية قديمة عند توفيق الحكيم وان لم يكن قد كتب فيها كثيرا لأن اهتمامه كان موجها إلى القوالب الجديدة فى أدبنا الحديث مما ليس له تراث يعتد به مثل الرواية والمسرح، وفى وقت كان المجتمع الجديد فى حاجة إلى هذه القوالب الجديدة.

أما الشعر العربى فهو تراثنا الخالد الراسخ فى نفوسنا وعقولنا ولم يكن محل مناقشة، ولم تكن قد ظهرت له قضية معاصرة تستحق البحث أو الاهتمام.

إلى أن ذهب الحكيم إلى باريس فى أوائل العشرينات فصادف ذلك ظهور "السريالية" التى ولدت وأعلنت قبل وصوله بشهر أو شهرين، وكان من نتيجتها تحطيم الكثير من المفاهيم السائدة فى الفن والأدب، فحطمت فيما حطمت قواعد الشعر التقليدى فيما سمى بالشعر الحر، وانتشر فى انجلترا وغيرها من بلاد أوروبا.

فى مسجد السيدة

وكان توفيق الحكيم قبل وصوله إلى باريس من الملازمين لمسجد السيدة زينب، يسمع "القرآن" ويفكر فيه ويتأمل ما أبدعه الله فيه من "الشكل"، وكيف كان يثير فى النفس الاعجاب بأسلوبه الفريد، الذى لا هو بالشعر

المنظوم ولا هو بالنثر المرسل، لكنه طاقة إلهية موسيقية معجزة، وذلك ما جعل توفيق الحكيم ينصرف عن الشعر السيريالى الجديد الذى كاد يحتذيه ويقلده فى بعض ما كتب وقتذاك، ويتجه إلى المصحف الذى كان يحمله معه، وينظر إلى صوره باعجاب، ومنها صورة الخيول وهى تعدو ضبحا، أى صوتت أنفاسها فى جوفها من العدو.

قال الخالق الأعظم فى الآيات الكريمة من سورة "العاديات"

"والعاديات ضبحا.

فالموريات قدحا.

فالمغيرات صبحا.

فأثرن به نقعا.

فوسطن به جمعا.

إن الإنسان لربه لكنود.

واستلهم توفيق الحكيم من هذه الآيات، شعرا كتبه عام ١٩٢ ، قال فيه:

تنفس صبح من أنوف خيول

تعدو لاهثة فى وهاد نفسى

أسمع فى أعماقى الصهيل

امنعوها من اللحاق بأمسى

إنها فى غيوم تمرق

تتساقط من سنابكها شهب تبرق

وتغرق فى عيون سود.

الجديد دائما

ولم يكن توفيق الحكيم يقصد شيئا بهذا الشعر، ولا أن يدعو إلى شئ كان كل ذلك فيما يظهر بعيدا عن خاطره، ولكنه كان في جو التأثر بكل جديد حوله، وقد جره التأثر بجو السريالية في ذلك العهد وما يعنيه من تحطيم القواعد القديمة، إلى أن يتأثر بالقرآن الكريم وخاصة في سوره المكية، وقد كان القرآن الكريم شيئا جديدا بالنسبة إلى الشعر الجاهلي، وظل جديدا إلى اليوم.

ما يهدد الشعر الجديد

ونحن اليوم بالذات نتجه إلى شعر جديد يتحرر من قيود الوزن والقافية مما يلتزم به الشعر التقليدي، وكما يرى الحكيم فإن استلهام الشعر الجديد عندنا، كان صدى لما حدث في أوروبا مما عاصره في أوائل العشرينات عندما زار باريس، وقد ذكر بعض رواد هذا الشعر الجديد تأثره باليوت الانجليزي، وهنا تنبه توفيق الحكيم إلى أنه سبق له في العشرينات أن تأثر بالقرآن في هذا الاتجاه، فلماذا لايفطن شعرنا الجديد إلى الأولى والأجدى به أن يكون النموذج له في التأثر، وهو القرآن الكريم الذي خرج عن الشكل المعمول به في الشعر العربي التقليدي وقواعده.

وفي رأى الأستاذ الحكيم انه إذا فطن هذا الشعر الجديد وشعراؤه إلى هذا المصدر لتكونت بذلك شخصية الشعر العربي الجديد الذي بدا للجميع أنه كالزهور الصناعية لاتنبت جذوره من أرضه، بل من أرض أجنبية، وهو مايهدده بالذبول والزوال، وينذر بالعودة إلى التراث الراسخ في القلوب والأسماع وهو الشعر العربي التقليدي.

بدلا من اليوت

ولهذا فإن توفيق الحكيم يعتقد أن الذي ينقذ الشعر الجديد ليس مجرد التعديل في التفاعيل ونحو ذلك من الشكليات التي يثبت بها عدم انفصاله عن تراثه (والواضح أن هذا الانفصال حدث بعد الحرب العالمية الأولى مواكبا

لما حدث فى أوروبا للشعر الجاهلى).. ولكن الذى ينقذ الشعر الجديد فعلا هو انتماؤه إلى كتاب العربية والإسلام الأكبر وهو القرآن الكريم، وكان هو فى نفس الأسلوب والشكل، النموذج الجديد الأعظم الذى واجه الشعر الجاهلى الراسخ، بتجديده المبين.

ولذلك يدعو توفيق الحكيم، المجددين من المبدعين فى الشعر الحديث أن ينظروا إلى تجديدهم فى القرآن الكريم بدلاً من احتذاء شعر "اليوت" وغيره من شعراء المجددين فى أوربا.. فما رأيهم؟

المبرر الوحيد

ويرى توفيق الحكيم أن المبرر الوحيد لتغيير التفاعيل والقوافى، مما هو جوهر هذا الشعر الجديد، أن يتجه استخدامه إلى مجال "الدراما" والمسرح والقصة، أى القوالب الجديدة فى عالمنا الجديد.. أى مما لم يكن معروفا من قبل فى تراث الأدب العربى القديم ، فالجديد يلائمه الأسلوب الجديد.

هذا ليس بشاعر

وفى قضية الشعر عامة يقول توفيق الحكيم فى كتاب قديم له عن "أدب الحياة"، إنه ليس ممن يتمسكون بعمود الشعر القديم وأوزانه وقوافيه بغير جدال ومناقشة، فهو مستعد دائما للإصغاء إلى كل رأى جديد.

وليس كل شعر يدبج على الطريقة القديمة يعجبه، فمن شعراء العصور الحديثة من يحاول تقليد القديم بفخامة الديباجة وغرابة اللفظ ورصانة العبارة ورنين الوزن والتزام القافية، فإذا به يجد الصخرة الصلبة حقا ولكنه لايجد الماء الزلال.. إذا به يجد الناظم ولايجد الشاعر.

وان هناك من يزعم أنه شاعر مجيد لمجرد أنه يملك قاموسا عربيا، ويجيد القوافى والأوزان، ويجد من يصدقونه، ويظنون أنه يقول شعرا، وفى الحقيقة ليس بشاعر ذلك الذى يقدم الصخرة ولايفجرها حياة.

كما أنه ليس بشاعر ذلك الذى يغرف من نهر النثر كلاما مثل كل كلام.

.. كل هذا من حيث الشكل.

مصباح علاء الدين

ولكن من حيث الموضوع فالمسألة تحتاج إلى بحث آخر : هى المعانى، فما هى المعانى الجديدة التى يجب أن يتناولها الشعر الجديد؟.. هل كل موضوع تتناوله الصحف ويتحدث به الناس فى المجالس يصلح للفن الشعرى.

هل موضوعات النثر تصلح أيضا موضوعات للشعر؟

كل هذه تساؤلات يطرحها الاستاذ الحكيم، ويطرح معها صورة الشعر كما يجب أن تكون وهو أنه كمصباح علاء الدين يكشف لك عن كنوزك أنت المخبوءة فى أعماق نفسك، وليس بالكيس المملوء الذى يفرغ فى خزائنك الخاوية، وعلى هذا فالموضوع الذى يعالجه الشعر يجب أن يكون متفقا مع رسالته.

أى أن يكون الموضوع شفافا مضيئا له قوة الكشف على عالم غير محدود، وليس موضوعا ثقيلاً يملأ الرأس بمادة محدودة.. ليس مجاله أن يكون أخبارا وحوداث وتواريخ ومقولات مرددة ممضوغة مما استهلكها النثر فلم يبق للشعر الا أن يضعها فى "العلب نظما محفوظا".

وعلى هذا النحو لا يريد شيخ المفكرين توفيق الحكيم تعريفا للشعر بأنه تصوير للحياة – بل بأنه انعكاس الحياة على نفس الشاعر، فالشاعر مثل القمر لايعطينا الحياة فى أشعتها المحرقة ووهجها الذى يعمى البصر، ولكنه يتلقى بعض أشعتها، ويصفيها من خلال نفسهِ ويعرضها علينا بعد ذلك ضوءا جميلا مهذبا، ترتاح له العين ويسبح فيه الذهن ويأنس له القلب، فيحيى الناس بذلك حياتين، حياة الواقع الأرضى، وحياة الفكر العلوى، واذا كانت أشعة

الشمس تقول للناس : أنظروا وأبصروا فان الشعر يجب أن يكون مثل القمر حين يستلهم أشعة الشمس لا لينظر بها الناس ويعبروا، بل لكىْ يشعروا (بضم الياء وكسر العين)، ويفكروا.

الحاجة إلى نظر

وهكذا، كما يرى توفيق الحكيم، يجب أن تطرح قضية الشعر فى عمومه وجوهره : هل هو اخبارى اعلامى، أو أنه ايحائى اشعاعى؟

كل هذه أمور وما سبقها يثيرها شيخ المفكرين توفيق الحكيم حول قضية الشعر، جديده وقديمه، مما يرى معه أنها تحتاج إلى نظر،٠ إذا فتح ملف هذه القضية المهمة فى حياة البشر : "قضية الشعر".

فما رأى شعراء النموذج التقليدى، وشعراء النموذج الحر؟..

الشعراء يهاجمون توفيق الحكيم

أثارت هذه الآراء ردود فعل الشعراء الجدد والتقليديين(*)

سنعرض أولا للشعراء الجدد باعتبار أن القضية تهمهم أكثر من غيرهم فيما طرحه الحكيم من قضايا متصلة بالشعر الجديد..

الشاعر محمد إبراهيم أبوسنة يقول :

فى الواقع أن الرأى الذى يطرحه الأستاذ توفيق الحكيم عن عدم أصالة الشعر العربى الجديد، رأى خطير للغاية، لأنه أولا يصدر عن الأستاذ توفيق الحكيم، وثانيا لأنه يجرد الشعراء العرب المحدثين الذين قدموا عطاء فى إطار حركة الشعر العربى الحديث فى هذا القرن، مما يعد أعظم انجاز لحركة الأدب العربى على الإطلاق، وذلك بالخروج بالأدب العربى من إطار المحلية إلى إطار العالمية.

(*) مجلة الإذاعة والتليفزيون ٢١ ديسمبر ١٩٨٥.

ويضيف أبوسنة : ولا أتصور أن الاستاذ الحكيم يصدق نفسه وهو يعلن هذا الرأى – بعدم أصالة الشعر العربى الحديث – لأنه يعلم أن حركة الشعر الحديثة هى حلقة طبيعية فى حلقات التطور والتجديد والتى شهد العصر العباسى بداياتها. وشهد العصر الأندلسى تفتحها، حيث خرجت القصيدة من حيث البناء، من الوقوف على الأطلال، والغزل، ثم وصف الراحلة التى يمتطيها الراحل، انتقلت القصيدة من هذا البناء التقليدى.

ثم حدث تطور أكثر نضجا فى العصر الأندلسى حيث نشأت التواشيح، والمقطعات، وبدأ مناخ فنى جديد.

تأثروا .. ولكن

ولكن كل هذا – يقول الشاعر أبو سنة – لايقاس بالتطور الحضارى، فى عصرنا الحديث والذى فرض على الشاعر بالطبع رؤية بالغة الاختلاف عن رؤى الشعراء السابقين، لذلك قفزت القصيدة فى عصرنا الحديث، قفزة جديدة تلائم ثقافة زماننا، ولهذا أحب أن أقول إن الحركة الجديدة للشعر العربى الحديث لايمكن أن تكون مجرد صدى للشعر الأوربى.

فمن المعروف تاريخيا أن بذور هذه الحركة الجديدة بدأت فى ترجمات محمد فريد أبوحديد، وعلى أحمد باكثير، وقصائد لبدر شاكر السياب، ونازك الملائكة حينما كانوا طلابا ، وصلاح عبدالصبور، فقد قرأوا نماذج للشاعر الانجليزى "اليوت" الذى كان يرفع لواء الحداثة فى القصيدة الانجليزية فى النصف الأول من هذا القرن، وربما تأثروا بتكنيكه الفنى، ولكن ليس من الطبيعى أن يكون هذا التأثر المحدود، وراء هذا الانتشار الواسع لحركة الشعر الحديث.

وأدب الحكيم

يستطرد أبوسنة قائلا : إن الوهم قائم على أساس أن المؤثرات الأجنبية موجودة فى أدبنا العربى كله، وليس فى الشعر وحده كانت طاغية خلال هذا القرن، خاصة فى المسرح والرواية. ومع ذلك فنحن لانقول عن أدب نجيب محفوظ، أو مسرح توفيق الحكيم، أنه مجرد صدى للحركة الأدبية الأجنبية.

والعكس هنا غير متطابق بالنسبة للشعر الحديث، لأنه يلتزم بتفاعيل الخليل بن أحمد، الذى تلتزم به القصيدة التقليدية، ولاينكر القافية، وإنما يتعامل معها بقدر من الحرية الفنية التى تتيح للشعر المعاصر مجالا وآفاقا أوسع للتعبير عن تجربته.

ولا أظن أن الأستاذ توفيق الحكيم، يرضى عن جمود الشكل التقليدى الذى كبل الشاعر بقيود زائفة، وحال دون ابتكار أنماط فنية جديدة، وأنا أعتقد أن حصاد حركة الشعر الحديث خلال الثلاثين سنة الماضية هو أخطر انجاز للشعر العربى خلال الألف سنة، وإن التزمت بالمضمون التاريخى والتجربة والموهبة والإيقاع الموسيقى، ولكنها استفادت من فنون العصر.

تساؤلات الحكيم

ويستكمل الشاعر محمد إبراهيم أبوسنة رده على الحكيم : أما فيما يتعلق بأن مجال الشعر الحديث هو الدراما والمسرح والقصة، فإن الحصاد الشعرى القائم الآن أظهر بوضوح أن الشكل الجديد يخدم القصيدة الغنائية كما يخدم الدراما والمسرح والملحمة وكل المجالات الأدبية، ذلك لأن الشعراء لم يتخلصوا من التفاعيل، وإنما مجرد إعادة تشكيل للإطار الموسيقى وهو تشكيل أتاح للشاعر أن يستخدم أسلوب الحوار والبناء الدرامى، وتكثيف الصورة واستلهام الأساطير والتركيز بدلا من الاطناب.

أما كون الشعر إعلاميا اخباريا، او ايحائيا اشعاعيا، فإن الشاعر فى هذا العصر قد أصبح شاهدا يتحمل مسئولية المشاركة فى صياغة أحداث عصره، وهو موقف ربما كان جديدا فى أدبنا.

أما تساؤلات الأستاذ الحكيم عن هل موضوعات النثر تصلح لموضوعات الشعر أو لاتصلح، فأعتقد أن كل تجربة تصلح أن تكون تجربة شعرية، لانه لايوجد لفظ شعرى ولفظ غير شعرى، والعبرة بالتناول الفنى للتجربة.

صدام لانريده

نأتى بعد ذلك إلى ما يطرحه الحكيم حول استخدام القرآن الكريم كملهم للشعراء المجدين، وأنا اتفق معه، ان القرآن ملهم للشعراء فقط من حيث اللغة، ولكنى أنزه القرآن عن أن يكون موضوع جدل أدبى أو مجرد مصدر لحركة تجديد، لأن دوره أكبر من هذا بكثير، والقرآن نفسه يقول عن الرسول "وما علمناه الشعرَ وما ينبغى له" وهناك موقف فى صدر الإسلام يؤكد حرج المؤمنين إزاء الشعر بعد أن جاء الإسلام، ولعلنا نذكر قصة "لبيد بن ربيعة" عندما طلب منه عمر بن الخطاب أن يُوافيه بقصيدة جديدة، فأرسل له "سورة البقرة"، وقال له : "ان الله قد أغنانا بهذا"

ونحن كشعراء تأثرنا جميعا بلغة القرآن، وأنا على وجه التحديد حفظت القرآن فى طفولتى قبل أن أدخل الأزهر، وكذلك أحمد عبدالمعطى حجازى، وكمال عمار، وكثير من شعراء جيلى، والقرآن بكل تأكيد يدخل فى نسيج البناء الشعرى العربى كله، لأنه العصب اللغوى لأدبنا كله والشعر فى المقدمة، ولكن قضية الأدب قضية خطيرة إذا ربطناها بالقرآن وهو كتاب مقدس حيث سينشأ موقف يدفع الشاعر إلى الخوف من التطور وعدم الاستجابة الحرة للعصر الذى يعيش فيه.

والأستاذ الحكيم، بهذا يضيف قيدا جديدا لا يساعد على الإطلاق فى الارتقاء بحركة الشعر والأدب، لأنه يوقعنا فى صدام مع نمط لغوى لايمكن التحرر منه لأنه نمط مقدس.

تطوير حركة الشعر العربى

ويتفق الشاعر أحمد سويلم عضو لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة، مع الشاعر أبو سنة، فى رده على الأستاذ توفيق الحكيم، ويقول : ليس صحيحا أن الشعر العربى الحديث رافد من روافد الثقافة الغربية، وأنه معدوم الجذور فى تاريخ الشعر العربى، فمن يقرأ تاريخ الشعر العربى قراءة متأنية يجد أن ملامح التطور والتجديد كانت تصاحب دائما أى تطور فى المجتمع.

وقد بدأ التطور والتجديد حتى فى العصر الجاهلى، فى أول ثورة متمردة على الشعر والحياة، قادها جماعة الصعاليك، حيث كانوا يكتبون المقطوعات الشعرية القصيرة التى كانت تعبر عن موقف واحد من مواقف غزوهم، فتمردوا بذلك على القصيدة المطولة كثيرة الموضوعات.

ثم حينما جاء الإسلام كأحدث ثورة اجتماعية ونفسية وعقائدية، كان لابد أن يكون له موقفه من هذه الثورة، وتجلى التطور فى العصر الإسلامى فى اتخاذ الجماعة الاسلامية مضمونا بديلا عن العصبية القبلية، كما دخلت مضامين كثيرة إسلامية وحياتية، إلى الشعر لم تكن موجودة فى العصر الجاهلى.

وقد انقسم الشعراء فى صدر الإسلام إلى أكثر من فريق، فريق عبر بشعره عن الجاهلية إلى الإسلام، وأحدث تطورا فى شعره، وعلى رأسهم "لبيد بن ربيعة" وفريق وقف إلى جانب الرسول صلى الله عليه وسلم ينافح عن دعوته ومنهم "حسان بن ثابت" و "كعب بن مالك"، وقد أكدوا فى شعرهم هذا التجديد والاختلاف الذى أحدثه الإسلام ، أما الفريق الثالث فلم يكن له علاقة وطيدة بالشعر، ولكن أنطقته الفتوح الإسلامية، فكتبوا الأبيات القليلة

جدا من بحر الرجز ليعبروا عن انتصار، أو موقف من الأعداء، أو غير ذلك من المواقف السريعة التى ألزمتهم بها الفتوح الاسلامية.

وحينما تطور الزمن أخذ كل شاعر يفكر كيف يجدد نفسه، وعلى رأس هؤلاء الشعراء، أبو العتاهية فى افتتاحية القصائد ونبذ الافتتاحيات التقليدية، وأحدث ثورة تجديدية ملحوظة فى الشعر العربى.

وسار على منواله وأضاف كثير من الشعراء أمثال أبى نواس والمتنبى، وغيرهما إلى أن بدأت حركة الإحياء فى العصر الحديث على أيدى البارودى، وبلغ أحمد شوقى بالقصيدة التقليدية مستوى من الإبداع لايستطيع أحد بعده أن يبلغه، وكأنه يقول للذين يأتون من بعده، افعلوا شيئا آخر.

منذ الفراعنة

وهذا ماحدث، حيث توالت جرعات التجديد فى شكل ومضمون القصيدة إلى أن وصلت تلقائيا إلى الشعر الحديث ، وبهذا فإن جذور التجديد فى الشعر العربى عميقة ممتدة لها تاريخ عربى خالص، وإذا كان الشعراء قد تثقفوا أو أضافوا إلى ثقافتهم ثقافة غربية، فهذا يحمد لهم، ولكنها ليست كل شئ لدى هؤلاء الشعراء.

ونحن لانستطيع أن نقول أن الشعر العربى الحديث صدى للحركة الشعرية الأوربية الحديثة، لأن الشعر الحديث ليس ابتكارا أوربيا، وإنما إذا شئنا الدقة التاريخية، فقد كان للفراعنة السبق فى معرفة مانسميه بالشعر الحديث، وفى الأدب الفرعونى القديم مايدل على ذلك.

القرآن

أما ماكتبه الأستاذ توفيق الحكيم كشعر استلهمه من القرآن الكريم، فهو تقليد ماسخ للقرآن، لأن القرآن ليس شعرا، ثم إن هذا النموذج الذى أتى به فيه خلل كثير فى الوزن، فالشعر ليس ايقاعات فارغة ولكنه إلى جانب ذلك

امتزاج بمضمون حياتى له قيمة، وله إضافة فى وجدان المتلقى، وأنا أعتقد أن القرآن يمثل ملهما جيدا للشعر العربى لو أقبل الشعراء عليه.

ولقد جمعت بينى وبين الأستاذ الحكيم جلسة ناقشت فيها معه قضية أصالة الشعر الجديد، ولكن للأسف الشديد، وجدت أستاذنا لايتابع كل ما يكتب فى الشعر الحديث، بل وجدته يقرأ فقط ماينشر فى صفحة الأدب يوم الأحد بالأهرام، على أنها نماذج تمثل الشعر الحديث، فقلت له : إن ماينشر نظم وليس بشعر.

لا خوف

وأنا أعتقد أن الشعر الحديث يمكن أن يكون له أكثر من أفق، نستطيع أن نكتب به القصيدة الغنائية، والقصيدة الدارجة والمسرح الشعرى، والملحمة الشعرية، والكتابة للطفل، لأن الشعر الحديث أكثر قدرة على استخدام معطيات ألوان الفنون الأخرى.

ارتياد المجهول

ومن ناحية الوجدان وتسجيل الأحداث شعرا، وعما إذا كان الشعر إخباريا إعلاميا أو إيجائيا إشعاعيا - يقول سويلم - قد يكتب الشاعر برؤية سياسية أو اجتماعية لكنه لايدخل إلى السياسة ولا إلى الاجتماع.

ولا خوف على الشعر الحديث من العودة به إلى الشعر القديم كما يقول الأستاذ الحكيم، لأن الشعر الحديث شعر أصيل بجذوره العربية، وكثير من مبدعية يؤكدون مسيرته عن قدرة وعطاء.

* * *

ومازالت الردود على الأستاذ توفيق الحكيم تتوالى(*) يتحدث الشاعر فاروق شوشة، فيقول : - لا أعتقد أن توفيق الحكيم كان جادا حين أطلق هذا الكلام، وإنما هى محاولة جديدة من محاولاته التى لاتنتهى - لإثارة الجدل

(*) مجلة الإذاعة ٤ يناير ٨٦

وجذب الانتباه، ولست أعتقد أن هذه النماذج القرآنية – من بعض السور الكريمة – تشكل نقطة انطلاق لموسيقى الشعر الجديد، أو تحمل معالم الأبوة الشرعية لهذا الشعر

أبوة الشعر

فهو مخاطبة رفيعة للنسق الموسيقى عند العربى المستقبل لنزول سور القرآن الكريم وآياته ومن هنا كانت وقفة الاحساس الكامل بالعجز، عند العربى فى وجه هذا الإعجاز البيانى فى النسق القرآنى.

كذلك فلست أرى أن شعرنا الجديد وليد التأثر باليوت وغيره من شعراء الغرب، فمهما بلغ التأثر بمثل هذه الروافد الأجنبية، فإنه لايخلق حركة شعرية بهذا العمق والشمول، والقدرة.

ولذا، فانى أرى أن أبوة الشعر الجديد الحقيقية، تتمثل فى القصيدة الكلاسيكية، فى تطورها واستمرارها ومحاولاتها الدائبة – عبر العصور المختلفة – للتشكل والتزيى والتحول، ورصد هذه التحولات فى مسيرة القصيدة العربية بدءا من العصر العباسى وانطلاقا إلى عصرنا الحاضر – كفيل بالتعرف على قسمات هذا التجديد وملامح هذه الثورة المستمرة، وعيا وعروضا ونغماً وبناء، وصولا إلى حقيقة القصيدة الجديدة، التى لن تكون آخر صيغ القصيدة العربية، وانما بدورها وطبقا لمنطق الإبداع والتجاوز – حلقة فى سلسلة، وخطوة فى مسار.

شجرة الشعر

ولست أدرى لماذا نجهد أنفسنا فى البحث عن جذور للقصيدة الشعرية الجديدة، خارج إطار الشعر العربى ذاته؟ مرة بالتغريب وتحميل "اليوت" عبء هذه المسئولية أو هذا الشرف، ومرة أخرى كما يفعل الحكيم اليوم فى بعض صيغ القرآن وفواصله الموسيقية.

إن قصيدة الشعر الجديد بانتمائها إلى شجرة الشعر العربى، لاتشغل نفسها بالبحث عن شهادة جديدة بالشرعية، ولا هى فى حاجة إلى أبوة – شرقية أو غربية – خارج إطار الشعر العربى ذاته، التى هى ملمح جدته وعصريته ، وقدرته على المغامرة والتجاوز، وعدم الثبات داخل أطر تفقده حيويته، وامتلاءه بالنفس الحاد والمتوهج، حرارة الإنسان وتوهجه، وحرارة إبداعه المعانق لرحلة الحياة والوجود.

ويقول الشاعر فاروق جويدة :

إذا كان كان أستاذنا الكبير توفيق يقصد بقوله أن ما يعرف بالقصيدة النثرية ومحاولات التحطيم والتكسير فى شكل الشعر العربى التقليدى ينذر بالعودة إلى الشعر التقليدى، فأنا معه، وأما إذا كان يقصد شعر التفعيلة "الشعر العربى الحديث " وهو فى رأيى ملتزم بالإطار التقليدى للقصيدة العربية، فليسمح لى أن أختلف معه.

ففى اعتقادى أن قصيدة التفعيلة ليست خروجا على الشعر التقليدى لأنها تلتزم بالتفعيلات الخليلية التى درج عليها الشعر العربى منذ مئات السنين.

والتغير الوحيد الذى حدث هو فى عدد التفعيلات وشكل القافية، وإن كنت واحدا من الذين يؤمنون بضرورة القافية فى القصيدة الشعرية فى أى شكل من الأشكال، لأن البعض ممن يحاولون الاجتهاد فى حركة الشعر الحديث قد أهملوا تماما. جانب القافية، وكان تركيزهم على موسيقى البيت.

قصور

أما ما يسمى بالقصيدة النثرية، فمن الممكن أن تسمى أصحابها أى شيء آخر غير أن يكونوا شعراء.

فأنا أرى أن هذا قصور يحاول أن يرتدى وجه الحق والحقيقة، يضاف إلى هذا أن الأخطر من ذلك هو موجة الغموض، التى تجتاح الآن القصيدة

العربيـة، وهـى موجـة مسـتوردة، لأن الشـعر العربـى شـعر لـه جذوره ولــه تاريخه، وليس وليدا جديدا مثل القصة القصيرة أو الرواية أو المسـرح، فهذه الفنون جميعها لم يتجـاوز عمرهـا مائـة سـنة فـى تـاريخ الأدب العربـى، أمـا الشعر فعمره أكثر من ١٥٠٠ سنة.

وخوفى على الشعر يرجع إلى سبب آخر هو أن ضرب الشعر العربـى فى حقيقته ضرب للغة العربيـة فـى حقيقتهـا، وضـرب للقـرآن، وهنـا يصبـح للقضية أكثر من جانب، وتصبح المشكلة أكثر تعقيدا.

ولكننـى أطمئـن أستاذنا توفيق الحكيم أن ميــاه النهـر أكـثر مـن أن تحتجزها بعض الطفيليات التى قد يتصور البعض أحيانا أنها قـادرة علـى أن تغير مجراه، فأنا لا أخاف على الشعر العربى ولا أخاف على اللغـة العربيـة من هذه النتوءات التى قد تظهر هنا أو هناك، والشعر قادر علـى أن يتخلـص من كل الشوائب التى يمكن أن تقـف فـى مجـراه أو تعـترض مسـيره كمـا أن الزمن كفيل بأن يسقط كل عبث وأن يبعد كل رخيص.

وأنا مع الأستاذ الحكيم بأن الشعر إيمائى إشـعاعى، إخبـارى إعلامـى، وأنا موافق أيضاً على قوله بأن المنطلق الوحيد لحركـة الشـعر الحديـث هـو القصيدة الدرامية أو المسرح الشعرى، وأنا شخصياً لم أستخدمه إلا فى هذيـن الغرضين.

أما استلهام القرآن فى الشعر الحديث كما يراه أستاذنا الحكيم فلا تعليق لى عليه.

الاسبقية

أما الشاعر فتحى سعيد فيعلق على ما قاله الأستاذ الحكيم بقوله :

لا .. هذا كلام يفتقد المنطق، ويناقض صيرورة الشعر العربى وتراثــه الممتد عبر ١٥٠٠ سنة هى عمر القصيدة العربية منذ شدا بهـا الشـعراء فـى العصر الجاهلى قبل الإسلام، بينما عمر الشعر الغربى، والإنجليزى خاصـة

لا يزيد على أربعة أو خمسة قرون، أما الأسبقية هنا للقصيدة العربية، والتراث يفرض على سائر أشعار الشعوب السبق والتميز.

ولم يكن الشعر الجديد إلا حفيدا للشعر العمودى العربى الأصيل الذى شهد موجة تجديدات تضارع شعر التفعيلة، فقد كسر العرب العمود الشعرى، وأضافوا البحور الغنائية الراقصة، ثم جاءت الموشحات نوعا من التجديد، أثار لغطا فى حينه، وظل الشعر يتطور إلى أن أخذ صورته فى شعر التفعيلة فى الأربعينات. وإن كان بعض الشعراء المجددين قد تأثروا "باليوت" و"كلوردج" فى الشعر، إلا أن تجديدهم كان نابعا من أعماق عروبتهم الشعرية، ومن جذور تراثهم الممتد طيلة هذه القرون حتى أفرغ الشعر الجديد، وبالتالى فقول الأستاذ الحكيم مردود عليه.

لا يأتيه الباطل

أما القرآن فهو مصدر ثرى جدا للشعراء، لأنه إعجاز يقوم اللسان ويشحذ البيان ويملأ وجدان الشاعر بحلاوة الموسيقى والإيقاع، وقد أضاف القرآن للشعراء الذين حفظوه ملامح خاصة أثرت شعرهم.

أما تقليده، فهو كتاب لا يأتيه الباطل من خلفه أو من أمامه، وهو إعجاز من التنزيل لا يمكن مجاراته، ولكن يمكن الاغتراف من منابعه، والنموذج الذى ساقه الأستاذ الحكيم نموذج نثرى لا يوجد فيه إيقاع الشعر ولا يرقى إلى كلمات القرآن الكريم.

وأذكره بمحاولاته فى "نشيد الأنشاد" الذى حوله إلى تراتيل جميلة فتنا بها فى سن الشباب.

وحديثه عن مجالات استخدامات الشعر الحديث فى الدراما والمسرح، فهذا صحيح، لأن تفعيلات الشعر الجديد تتيح للشعر انطلاقا أكثر بجانب أن هذا هو تطور لابد منه ويناسب مقتضيات العصر، لأنه لا يستطيع قارىء هذا العصر أن يقرأ المعلقات مثلا أويسمعها، ولكنه يستطيع أن يقرأ ديوانا

من الشعر يتميز بالبساطة والموسيقى يمس وجدانه فى زحام الحياة الآن، لأن الشعر رؤية عليا ورؤية خاصة، وهو أعلى مستويات الفن قيمة، حتى وصف القرآن بأنه ليس شعر ووصف الرسول بأنه ليس شاعرا، وذلك اعتراف بتميز الشعر.

فالشاعر حدقة واعية تسجل الصور أدق مما تسجلها الكاميرا.. وكلما اكتشف الشاعر ذاته ويتجاوز عالم الدهشة والبراءة كلما جاء شعره على نفس المستوى حتى قيل : ان الشاعر نبى وأن له رؤية ووحيا.

ولا يوجد شئ اسمه شعر النثر، لأن النثر له فرسانه مثل جبران والرافعى والمنفلوطى والزيات، ولا يقال عنهم شعراء، أما الشاعر فهو نبض القلب معزوفا على إيقاع الروح، فلا يجب الخلط بين الاثنين، كما أن القصيدة النثرية المسماة خطأ بذلك لا تعنى بانتشارها العودة إلى الشعر العمودى.

لم تخرج عن النطاق

ويرى الشاعر مهران السيد :

رواد هذا الشكل الجديد قد استفادوا بالقطع من الشعر الأوربى.

ولكن إذا أردنا أن نقول أنه تقليد للشعر الأوربى فقد كان يجب أن يقوم على النبر والإيقاع، وما إلى ذلك من خصائص الشعر الأوربى.

ولكن المدرسة العربية الحديثة، اعتمدت على التفعيلة الخليلية لبناء القصيدة الجديدة، وهى بهذا لم تخرج عن نطاق الشعر العمودى الموروث، أيضاً لا يمكن أن نطلق صفة على أى نمط من أنماط الشعر بأنه أوربى أو عربى إلا من خلال شكل القصيدة فقط، أى الشكل العمودى فقط.

استنفذ أغراضه

والشعر الجديد اصبحت له السيادة فى الساحة، ذلك لأن الشكل العمودى استنفذ أغراضه، ولاعتقادى أن الشعراء العظام قد غابوا بالفعل.

وأعتقد أن هذا جزء من طبيعة العصر الذى نعيشه، فلا يوجد من يحتل مكان أو يظفر بقيمة الكلاسيكيين، ليس فى مصر وحدها، ولكن فى اعتقادى فى كل أنحاء العالم.

والذى يحدد عمر الجنس الأدبى هو مدى استيعابه لهموم وقضايا الإنسان ومدى تمثله لقضايا شعبه وبلاده، لأننا نعيش زمانا لايمكن مثلا أن تعيش فيه الرومانسية، ولأنها فى ظروف مثل ظروف مجتمعنا تصبح شديدة الغربة، وترفا لامعنى له، ويمكن الاستغناء عنه، كما ننادى بالاستغناء عن الكماليات المادية.

كما أن القصيدة الجديدة أكثر اقترابا وتلاحما مع نفسية المتلقى، وقد مدت جناحيها إلى آفاق أعتقد أنه لم تصل إليها أو تطرقها القصيدة التقليدية، وقد يكون ذلك لتغير الظروف، وقد يكون ذلك من ناحية قدرة الشكل الجديد على استيعاب الأفكار بدقائقها وتفصيلاتها.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن المسرح الشعرى يعد نقلة بعيدة نقل إليها الشعر الجديد، المسرح.

الموجة الجديدة

أما الموجة الجديدة التى يدعو إليها أدونيس الذى يسعى كما يدعى إلى خلق ما سماه بالحساسية الجديدة، والتى تعنى فى الأساس إلى رفض الهيمنة القديمة المتمثلة فى عمود الشعر العربى، ثم اندفع إلى أبعد من ذلك إلى رفض صنمية القصيدة الجديدة القائمة على التفعيلة الخليلية، ثم نادى باعتماد "المحكيات" بمعنى اللهجات المحلية، فأعتقد أنه عند هذه النقطة تتضح لنا

المهمة الأساسية له، وهى ضرب اللغة العربية فى كافة أنحاء الوطن العربى، وذلك إذا ما تمت سيادة هذه اللهجات المحلية.

وهذا يعنى تفكيك هـذا الوطـن الكبير، ودفعه إلى الانعزال وتكريس الإقليمية بتفكيك هذا الوجدان الجمعى، وهو الرابط الوحيد لهذه الأمة وبالتالى لا يكون لديها السلاح الواحد الذى يجمعها فى مواجهة كل التحديات المحيطة به.

أمر ليس واردا

ولعل الأستاذ الحكيم قد أدرك ذلك فراح يدعو إلى استلهام القرآن فى الشكل والأسلوب، بالنسبة للقصيدة الجديدة، على اعتبار أن القرآن هو الذى يحمى اللغة العربية من كل التحديات وبالتالى إذا لجأ الشعر اليه، فإنه يحمى نفسه به.

واستلهام معانى القرآن فى الشعر، أمر وارد باستمرار، أما أن أستلهم شكله وأسلوبه، فالقرآن ليس شعرا، ولكنه لغة سماوية أعجزت أعتى فصحاء العرب، ومحاولة تقليده، أعتقد أنها محاولة غير صائبة بالمرة، وليست واردة.

* * *

جاء(*) الآن دور شعراء القصيدة التقليدية أو الأصيلة كما يقولون ليشاركوا برأيهم حول القضيتين الأساسيتين فى ملف الشعر والشعراء الذى فتحناه مع شيخ المفكرين توفيق الحكيم حول البحث عن جذور يستند إليها الشعر الجديد الذى قال الحكيم إنه أوربى الصوت والصدى مما ينذر بالعودة إلى الشعر التقليدى وهو لهذا يقترح النظر فى القرآن الكريم واستلهام شكله وأسلوبه لإيجاد تلك الجذور المفقودة للشعر الجديد، كما نختتم الملف برد الناقد الكبير د. عبدالقادر القط.

(*) مجلة الإذاعة ١٨ يناير ٨٦.

فيقول الشاعر محمد التهامى..

أنا متفق مع المعنى الذى ورد برأى الأستاذ الحكيم وهو تأثر الحركة الشعرية الجديدة تأثرا كبيرا بالشعر الأوربى وخاصة شعر اليوت بالذات وخاصة قصيدته "الأرض الخراب" التى بمزيد من الأسف تشيع تعابيرها الشعرية فى قاموس عدد كبير جدا من الشعراء المجددين وأنا هنا لا أرفض اختلاط الثقافات وتأثر بعضها بالبعض الآخر، ولكن حين يصل الأمر إلى مرتبة النقل فإن ذلك يصبح عيبا.

وشعر التفعيلة قد توفر عليه عدد من الشعراء المجددين النابهين، وتحمس له عدد كبير جدا من النقاد، وفى غمرة الحماس للدعوة الجديدة، هاجموا الشعر الخليلى "التقليدى" وكان ذلك عيبا كبيرا أيضا.

وبعد أن خطا الشعر الجديد بعض الخطوات التى يمكن أن يقال أن لها وزنا شعريا إلا أنه لجأ إلى المنفذ الطبيعى له وهو المسرح، ثم توقف الآن أو كاد حين انطلق الدعاة الجدد إلى القصيدة النثرية، ووقف النقاد منهم موقفا مضادا، وكانت النتيجة أن الحركة النقدية جانبها الصواب لأنها فى هذه الحالة تكون قد هزت الشعر عامة سواء كان شعرا تقليديا أوجديدا لأنه سبق لهذه الحركة النقدية أن هاجمت الشعر الخليلى ورحبت بالشعر الجديد، ثم عادت لتهاجم الشعر الجديد مرة أخرى، وفى هذا التضارب خطر على الشعر عامة، وإن كان هذا بوجه عام يبشر "ولا أقول ينذر كما قال الحكيم" بالعودة إلى الشعر الخليلى.

الإجماع

نأتى إلى حديث توفيق الحكيم - يضيف الشاعر محمد التهامى - ودعواته للشعراء المجددين، إلى النظر فى تجديدهم إلى القرآن، بدلا من احتذاء شعر اليوت وغيره، وهذا الكلام خطير وميسور جدا الرد عليه، لأن هناك إجماعا، بنص القرآن وكل المؤمنين والدراسات

القرآنية، أن القرآن ليس بشعر كما يقول الله فى القرآن " وما هو بقول شاعر" فلماذا نتمسح فى القرآن وما علاقة القرآن بالشعر، إن هذا نوع من العبث، حاوله، كفار قريش عندما حاولوا أن يستلهموا من القرآن آيات يقلدونها. إننى أرجو رجاء ملحا البعد عن القرآن.

نعم هو ملهم

أما الشاعر إبراهيم عيسى فيؤيد : أن ما يقوله الحكيم من أن الشعر الحديث هو صدى للصيحة الحديثة فى الشعر الأوربى، هو حقيقة، وإذا عاد الشعراء الجدد بشعرهم إلى الشعر الأصيل فهذا معناه عودة الإنسان العربى إلى أصله وجذوره وحقيقته، بعد اغتراب.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ففيما يتعلق بالقرآن، فهو ملهم للشعر فى صوره وأخيلته وقصصه، والاستعمال لايكون مباشرا، ولكن عن طريق الرمز والايمان.

الأوتار

ويؤكد الشاعر عبدالمنعم الأنصارى على أن حركة الشعر الحديث قد أضرت بحركة الشعر العربى وأوقعت نفسها فى مأزق لا تعرف كيف تخرج منه، إذ أن هذه الحركة قد أوقعت نفسها فى الإغراب والتعتيم والغموض الذى يستحيل على الفهم، وأنا متفق مع الأستاذ توفيق الحكيم أنها حركة بلا جذور لأنها نزعت نفسها من التراث العربى، واستمدت ينابيعها من شعر الغرب، وهو شعر يعبر عن شعوب قد بلغت مستوى حضارى يموج بالترف والضجر والسأم، مما يجعله متعارضاً مع منابعنا الواضحة البناءة.

وأنا أيضا متفق مع الأستاذ الحكيم فى أنه يمكن أن نستلهم من القرآن صورا عديدة ولكن لا نقلده.

وبوجه عام نحن الشعراء القدامى، نقبل الشعر الحديث كشكل يضاف إلى الأشكال الشعرية، وليس هو البديل للأشكال المتعددة بما فيها من موشحات ومقطعات ومجزئات.. الخ

والشعر الذى يقولون عنه إنه جديد ليس جديدا، إذ أنه طريقة تقوم على التفعيلات الخليلية، التى يقوم عليها الشعر العربى، فهم لم يأتوا بموسيقى جديدة ولم يضيفوا شيئا عليها وإنما أنا أراهم كمثل الذى فى يده آلة موسيقية فيها عشرون وترا فأهمل الأوتار العشرين وعزف على ثلاثة أوتار فقط.

وأستطيع أن أقول أن الشعر الحديث جزء من الشعر القديم، ولكن بشكل آخر والنماذج الجيدة قليلة. والأصوات المتفردة أقل ، ولاشك أن هذا ينذر بالعودة إلى الشعر الذى تعرفه العرب.

حضن المسرح

ويبدى الشاعر إسماعيل عقاب أيضا اتفاقه مع آراء الأستاذ الحكيم مضيفا، أن الشعر الجديد حينما وجد فى أوربا وجد لكى يكون لغة للمسرح وليس من أجل القصيدة المفردة، ولكى يظل الشعر الجديد مواكبا للعصور التالية عليه ألا يترك حضن المسرح، فهذا يحفظ له الخلود والبقاء.

والقول بأن الشعر الجديد هو حلقة من حلقات التطور، قضية مختلفة، لأن الشعر الحر فن غربى نقل إلى العرب، وأما الادعاء بأن الشعر العمودى يلجأ إلى الافتعال حتى تكتمل أبيات القصيدة وزنا وقافية ، فإن من يدعون ذلك يقولون من منطلق عجزهم عن امتلاك الموسيقى الشعرية ببحورها المتعددة.

أصل إلى اقتراح الأستاذ الحكيم بخصوص استلهام القرآن فى التجربة الشعرية، أقول : أن القرآن فيه اعجاز فى الصياغة العربية والبيانية ولذا فهو معلم للأدباء، فى فن الصياغة العربية السليمة، والاستشهاد به فى القضايا

اللغوية والنحوية، كما أن فيه من البيان ما يمكن أن يثرى تجربة أى مبدع أدبى.

ماذا قال العميد ؟

ويؤكد الشاعر سعيد فايد – الذى يكتب الشعر التقليدى والشعر الحديث – أن الشعر العربى العربى التقليدى باق ما بقيت اللغة العربية كأسمى فن من فنونها، ومع العلم بانه لاصلة للشعر، بالقرآن الكريم من بعيد ولا من قريب، وتحضرنى فى ذلك عبارة لعميد الأدب العربى طه حسين يقول فيها "إن اللغة العربية ثلاثة أقسام: شعر ونثر وقرآن".

أما الشعر الجديد أوالحديث كما كان يسمى فقد عجز أصحابه عن أن يرسخوا أقدامهم فى تربة الثقافة العربية ولا أن يضيفوا جديدا يحسه القارئ العربى كما أحس من قبل عند الأندلسيين والمهجريين، بل لقد بدأت مدرستهم فى الانقراض بعد موت صلاح عبدالصبور وأمل دنقل، وغيرهم.

مرحلة معدومة

ونأتى إلى فصل الختام فى ملف الشعر والشعراء الذى فتحه شيخ المفكرين توفيق الحكيم، وذلك بالحديث مع الناقد الكبير الأستاذ الدكتور عبدالقادر القط الذى يقول :

نحن رحبنا بحركة الشعر الجديد لأننا كنا ندرك أنها جاءت وليدة تطور اجتماعى وحضارى كبير ، حدث فى المجتمع العربى بعد الحرب الثانية، وأنها لم تكن مفاجأة أوطفرة بل سبقتها تجارب كثيرة فى الشكل الشعرى منذ بداية الحركة الرومانسية إلى أن بدأت هذه الظاهرة تأخذ شكلها الفنى الجديد.

وقد ساعد على قبول نتائج هذه الحركة أن روادها كانوا مثقفين ثقافة واسعة أصيلة بالتراث، وبالتراث الشعرى العربى القديم، وكان قد بدأ كثير منهم ابداعهم فى شكل القصيدة العربية التقليدية على مستوى فنى مرموق،

مما يدل على أن هذا التحول لم يكن كما يقال أحيانا عجزا عن الإبداع فى الشكل العربى القديم، وقد مكنتهم هذه الصلة بالتراث من أن يضمنوا شعرهم الإيقاع الأساسى للشعر العربى وينتفعوا بكثير من صيغه الشعرية.

وحين تطوروا بعد ذلك لم يبعدوا كثيرا عن روح الشعر العربى العام.

أما هذه المرحلة فتعد مرحلة جديدة تماما فى رأيى تكاد تكون معدومة الصلة بالتراث العربى، وضعيفة الصلة بمرحلة رواد الشعر، وأصحابها يعدون أنفسهم حركة شعرية جديدة تماما يطلقون عليها مصطلحهم المعروف "الحساسية الجديدة"، ولا أدرى لماذا يكون الشعر وحده يتميز بهذا الاتجاه دون سائر الفنون الأخرى، ولذلك فإن الشعر فى مرحلته الأخيرة قد ضاقت دائرة متلقيه إلى حد كبير حتى أصبح الشعراء فى واد ومحبو الشعر فى واد آخر.

طبيعة المتلقى

ولا أعتقد أن هذه الحال التى وصل إليها الشعر الحر تنذر بالعودة إلى الشعر التقليدى لأن الشعر مثل أشكال الفن والأدب لايمكن أن تكون ثابتة على مر العصور، كما أن الشعر التقليدى أو العمودى الجيد منه أصبح نادرا إلى حد كبير، وهذا مايدفع إلى الإحساس بأن الشعر يكاد ينقرض فى حياتنا الفنية إذا استمرت الحال على هذا الوضع، فليس هناك إلا نماذج قليلة جدا من الشعر العمودى، فيها روح المغامرة لطبيعة التجربة واستخدام اللغة ورسم الصورة الشعرية والايقاع العام، وليس فى الشعر الحر فى مرحلته الأخيرة مايغنى متلقى الشعر عن هذا الشعر العمودى الذى يناسب روح العصر، فإذن كيف السبيل إلى الخلاص مما وصل إليه الشعر الحر؟

إن الخلاص لايكون بالعودة إلى الشعر التقليدى، ولكن بإعادة الارتباط بالتراث القديم، وإدراك أسرار اللغة العربية وأساليبها، ثم الخروج من هذا التراث، وثمار الأدب العربى الحديث، بمفهوم جديد للشعر يرضى حاجات

المرحلة التى نعيش فيها، ولايتجاهل طبيعة متلقى الشعر، بدعوى أن التجربة الشعرية تقتضى مثل هذا الشكل دون نظر على الإطلاق لطبيعة المتلقى.

كما أن الشكل المسرحى هو الذى يمكن أن يخرج الشعر الحر من هذه الدائرة المغلقة، أو هذا الطريق المسدود الذى يسير فيه، والتى يمكن أن تستغل فيه إمكانات الشعر الحر بكل طاقاته.

طبيعة التجربة العصرية

اما استلهام القرآن، فأنا اعتقد أن القرآن هو بمعزل عن الشعر، وأنه إذا كان بعض الشعراء قد انتفعوا ببعض أساليب القرآن، فقد كان هذا فى مرحلة تعود إلى عصر إسلامى تأثرت اللغة العربية فيه كلها بروح القرآن، لكن طبيعة التجربة العصرية، وماجد على اللغة من تطور فى أساليبها وفى دلالات ألفاظها وفى صورها : يجعل من العسير جداً على الشاعر أن يحتذى أساليب القرآن .

والواقع أن هذه الصورة الطريفة التى يظن الحكيم أنه استلهم فيها القرآن هى صورة شعرية ركيكة بعيدة كل البعد عن سورة العاديات، وقد يكون هو نفسه فى لحظة ابداعية ظن أنه يستلهم الآيات الكريمة، لكن ما أتى به شئ لاعلاقة له إطلاقا بسورة العاديات.

رصد الواقع

وليس هناك مايسمى بالمعانى فى الشعر إنما هناك مايسميه النقد حاليا بالتجارب الشعرية، والمهم أن تتحول التجربة من واقع إلى صورة فنية ناجحة لذلك الواقع بحيث تصبح كما يقال فى النقد الجديد كيانا فنيا مستقلا عن ذلك الواقع الذى نشأت فيه، وليس هناك ما يسمى بالموضوع الشعرى أوغير الشعرى، إنما هى قدرة الشاعر على تحويل الواقع إلى صورة فنية، وكل موضوع ممكن تحويله لعمل فنى ناجح.

والشعر رصد للواقع والحياة من خلال وجدان الشاعر وتصوير مظاهر الحياة وواقعها من خلال موهبة فطرية أولا وسيطرة على الشكل الفنى واللغة ثانيا، فليس هناك مصباح علاء الدين - كما يقول الحكيم - ولا كيس جواهر - وإنما هناك حياة وموهبة وثقافة ومراس.

هل يموت ؟

ومن المؤكد أن طبيعة الشعر فى مرحلته الأخيرة قد صرفت الناس عن الإقبال عليه ، لطبيعة العصر الذى نعيش فيه، من ناحية الاهتمام فى عالمنا الثالث بالاتجاه العلمى بعد أن أدركنا فجأة تخلفنا فى هذا المضمار، ثم غلبة فنون قوية أخرى على الشعر أصبحت هى فنون العصر كالرواية والقصيدة والمسرحية وبخاصة من خلال الوسائل الإعلامية الحديثة كالإذاعة والتليفزيون، وأصبح الإطار التمثيلى بوجه عام هو قالب العصر الآن. كما أن تعليمنا العام الآن لايقدم إلى النشء المعرفة الدقيقة باللغة العربية وأسرارها، لإبداع الشعر وتذوقه.

لذلك تظل الموهبة الشعرية كامنة لاتجد الأداة للتعبير عن نفسها، ويظل حب الشعر أيضا ميلا فطريا لايجد من الثقافة ما تصقله وتؤهله للإدراك الواعى والتذوق الصحيح ، لكن الشعر كروح وتعبير عن وجدان الانسان لايموت.

* * *

وتعليقا على هذه المناقشات كتب توفيق الحكيم ردا قال فيه :

ظلمونى الشعراء

أثار(*) الشعراء المحدثون ضجة حول ما أبديته من رأى فى الشعر الحديث فهاجمونى دون أن يحاولوا فهمى. والحقيقة أننى أساندهم ولا أهاجمهم، ولكنهم اندفعوا دون وعى يحملون علىَّ حملة شعواء وسأحاول مرة أخرى أن أوضح لهم وجهة نظرى.

حينما تحدثت عن ضرورة أن يبحثوا لهم عن جذور عربية عوضا عن الجذور الأجنبية المتمثلة فى اليوت، فقد كنت أقصد أن أعطيهم سندا من القرآن الذى سبق اليوت بآلاف السنين، وفى القرآن كل المزايا التى تجعله سندا لشعراء القصيدة الجديدة فى قضيتهم، وليس القرآن كمضمون لأن المضمون إلهى لايمكن الدخول إلى منطقته. أما الشكل فهو الذى أقصد أن يحذوا حذوه خاصة السور المكية التى بها الموسيقى والإيقاع والتحرر من الوزن والقافية.

فموقفى إذن أننى لست معارضا للتجديد الذى ظهر فى القصيدة العربية بما نتج عنه مايسمى بالشعر الحر، فأنا مع التجديد ولست ضده ولكن الذى أعارضه هو أن يكون هذا التجديد نابعا من منابع أجنبية وغربية خاصة وأن بعض شعراء القصيدة الحرة مثل صلاح عبدالصبور قد اعترفوا بتأثرهم باليوت، لأنهم جاءوا بعده، فيكون من الطبيعى أن تنعكس دعوته للتجديد فى القصيدة على اتجاههم إلى التجديد فى القصيدة العربية.

ولكن حينما يعترفون بأن الشكل القرآنى هو الشكل الذى يستمدون منه تجديدهم فإنهم بذلك يكتسبون أصالة وعراقة وشرفا.

لذلك فقد فهمنى شعراء القصيدة الحرة فهما خاطئا عندما تصوروا أننى أريدهم أن يقلدوا القرآن ، فهذا أبعد مايكون عن تفكيرى، لقد أردت أن أكون

(*) مجلة الإذاعة ١٥ فبراير ١٩٨٦

محاميا عن الموجة الجديدة من شعراء القصيدة الجديدة ولكن ماحدث أنهم أمسكوا بى وظنوا أننى لست محاميا وإنما أنا متهم.

فما مصلحتى فى أن أهاجمهم، فأنا لست شاعرا تقليديا لأهاجم شعرهم الحر، ولا أدعى أننى شاعر علـى أى وجه من الوجوه. وماسقته من مثل استمدت فيه الشكل من سورة العاديات، ماهو إلا نموذج لتدعيم وجهة نظرى بشكل التجديد الذى أردت من شعراء القصيدة الجديدة أن يلتمسوا فيه أصالتهم.

ولكن ماداموا قد رفضوا دفاعى عنهم فماذا يقولون للعقاد وهو شاعر معترف به، لدرجة أنهم كانوا سيختارونه بعد أحمد شوقى، أميرا للشعراء، هذا بالإضافة إلى أنه كان رئيسا للجنة الشعر، وكانت كل قصيدة من الشعر الحر تأتى اليه يكتب عليها تأشيرة بتحويلها إلى لجنة النثر.

فهل يجدون جوابا على هذا والعقاد شاعر ورئيس للجنة الشعر، لقد رفضهم العقاد نهائيا.. ولماذا رفضهم؟ يجب أن يسألوا أنفسهم هذا السؤال ويبحثوا عن إجابته، لأن هذا يطعن فى شرعيتهم، أما أنا فلم أطعن فى شرعيتهم، ولم أهاجمهم ولكننى فقط أنبههم إلى أن أمامهم مصدرا جيدا يستطيعون أن يلتمسوا فيه أصالتهم وجذورهم، خاصة وأنه سبق اليوت الذى يعترف بعض روادهم أنهم تأثروا به.

أما حكاية أنهم يلتزمون التفعيلة ولايلتزمون الوزن والقافية – وأن هذا الالتزام بالتفعيلة هو امتداد للشعر التقليدى، الذى يستمدون منه آصالتهم فهذا فى حاجة إلى متخصصين يفهمون ويدققون ويراجعون، لأنه ليس كل الناس يعرفون مسألة التفعيلات الشعرية.

إنما عندما يقولون أنهم ينتسبون إلى الشكل القرآنى، فهذا نسب يشرفهم لأنه نسب شرعى.

لقد رفضتم المحامى واتهمتموه بأنه ضدكم، وهذا ليس بصحيح لأننى فى الواقع أدافع عنكم، لأننى أردت أن أقول لكم من أين تأتى الأصالة.

أليس القرآن غير ملتزم بالوزن والقافية، أليس القرآن فيه موسيقى، أليس القرآن به صور فنية ؟

إذن فهو يتفق مع التجديد الذى تريدونه فى الشعر الجديد، فلماذا تبتعدون عنه، وهو أقرب إليكم من اليوت وغيره من الشعراء الغربيين!؟

ولكن مادمتم أيها الشعراء لا تريدون محاميا ولاسندا يسندكم، مع أن لكم خصوما ولكم مدعون انتهزوا فرصة كسر الشكل العمودى للشعر وقالوا نحن شعراء وهم ليسوا بشعراء، ومادمتم تشعرون أنكم أقوياء تقفون على أقدام صلبة وأرض ثابتة. فأنا لم أخسر شيئا لأننى لست شاعرا وبالتالى ليس لى مصلحة شخصية.

ولم يغضبنى هجومكم ياشعراء القصيدة الحرة لأن هجومكم جاء نتيجة سوء فهم يبدو أنه غير مقصود، ولكن الذى آلمنى هذه الحساسية التى اندفعتم من خلالها تهاجمون دون روية أو محاولة لفهم مقصدى كمحامى وليس كمهاجم حولتموه إلى متهم.

والحكاية ليست معركة لأننى لست ضدكم ولا ضد الشعراء القدامى، وإنما أنا معكم ومع التجديد فى حد ذاته، ولكننى أريد أن أصل بالجديد فى الشعر إلى إيجاد جذور عربية له.

ومادمتم ياشعراء القصيدة الجديدة ترفضون دفاعى، فأنتم أحرار ولكن كونوا عمليين وابعثوا إلىَّ عبر مجلة الاذاعة والتليفزيون بدواوينكم أو على الأقل – حتى لا أثقل عليكم – بنموذج من شعركم علنى أجد فيه مايسرنى.

* * *

النموذج القرآني

ربما سأل سائل: «ولماذا نصحت أصحاب الشعر الحر بالانتساب إلى النموذج القرآني؟» أقول وأكرر هذا القول: إن القرآن يتميز من حيث الشكل بأنه «شكل حر» أي أنه لا يتقيد بنظم ولا بقافية ... وهذه الحرية الشاملة تنبع من هذا النبع العظيم ... ولم يكن قصدنا كما فهم بعضهم أنه المحاكاة من حيث الموضوع والمضمون ... لأن الموضوع والمضمون هو من عند الله تعالى لا يصح مجرد التفكير في محاكاته أو مجاراته بأي وجه من الوجوه ... وإنما يجوز فقط الانتساب إليه من حيث الحرية والشكل الحر ... وهذا يكفي للتأصيل ... ولا حاجة إلى الالتجاء إلى أدلة ضعيفة مثل التفعيلة، ونحو ذلك ... لأن الشعر الحر إذا قيد نفسه بالتفعيلة فإنه لا يصبح حرا ... ويفقد صفة الحرية ... ويكون قد تحرر من قيد ليقع تحت سلطان قيد آخر: (التفعيلة) ... ويتعرض للنقد السطحي الذي يركز على «التفعيلة» المكسورة والمعيبة ... أنا أريد للشعر الحر حريته الكاملة اقتباسا من حرية «القرآن» ... وذاكرتي الضعيفة اليوم تخيل لي أني لمحت يوما في كتاب أخير للمرحوم «صلاح عبد الصبور» بعض آيات قرآنية لم تسمح لي ظروفي وقتئذ بتحري ذلك وأسبابه، فهل تراه قد فطن إلى أهمية هذا الشكل الحر في القرآن؟ ... لست أدري وأرجو مراجعة ذلك في كتبه ... وأنا اليوم بحكم سني وصحتي لا يمكن أن أبذل مجهودا يذكر في أي شيء ... ولولا رغبتي في أن يكون للقرآن الكريم فضل في توجيه الشعر الحر الجديد، لما تحركت ... ومن حسن الحظ أني تحركت لرفع ظلم عن الشعر الحر الجيد ... فالشعر كله في حياتي الأدبية لم يكن من اهتمامي، وأذكر مع الأسف أن الصديق الشاعر الرقيق «إبراهيم ناجي» قصدني في الثلاثينات لأكتب مقدمة ديوانه الأول «من وراء الغمام» فأحلته على غيري ... أما الشعر الحر اليوم فقد سمعت الضجيج الكثير عن حريته ... وأنا بطبعي مع الحرية في الفن والأدب لأنها باب التجريب ... ولكن الباب المفتوح يغري بالدخول من يستحق ومن لا يستحق ويؤدي أحيانا إلى الفوضى ... ولذلك استرحت الآن واستراح ضميري إذ وقعت بين يدي أعمال من هذا الشعر لثلاثة من الشبان فيهم: «إبراهيم أبو سنة وفاروق شوشة وأحمد سويلم» ... فاخترت نماذج قليلة من هذا الشعر الحر الحقيقي ... وكان من الودي أن أكثر من الاختيار لولا مساحة النشر ... ولكن ذلك يكفي ليؤكد لنا أن التراب الذي يملأ الأرض قد نجد أحيانا في القليل منه بعض الذهب» ...

وها هي ذي النماذج:

الصفحة الأخيرة من مقال توفيق الحكيم والذى أنهى به معركته مع العشراء

مصالحة

وقد اختار الحكيم ثلاثة نماذج لثلاثة من الشعراء البارزين فى مجال الشعر الحر ضمنها مقاله التالى الذى خص به مجلة الإذاعة والتليفزيون.. وبذلك يكون قد تم الصلح بينه وبينهم(*).

كتب شيخ المفكرين توفيق الحكيم : لقد أحسن بعض زعماء الشعر الحر البارز اليوم بإرسال بعض نماذج من شعرهم الحر لأنظر فيه وأحكم بناء عليه.. وأنا لسبق اشتغالى بالقضاء ما كان يهمنى كثيرا الإصغاء إلى المرافعات الطويلة للمحامين.. بل كان يكفى شاهد إثبات واحد ليقنعنى.. وشاهد الإثبات فى هذه القضية هو شعرهم وحده.. ولو ظلوا يتجادلون بالألفاظ. ويسوقون الحجج والبراهين لما ظفروا بشئ.. ولكننى عندما سمعت شاهد اثباتهم واطلعت على نماذج من شعرهم وضحت أمامى القضية.. بل خرجت منها بالنقطة الفاصلة : ما هو لب الجوهر فى الشعر الحر؟..

وجدته فيما يمكن أن أصفه بكلمة : "عرق الذهب " .

عرق الذهب

نعم.. عندما نذهب لاكتشاف "منجم" ماذا نفعل ؟ إننا نجمع حفنة من التراب أو الحجر أو الحصى ، ونذهب لنحلله، فإذا وجدنا فيه عرق الذهب فإننا نعلن ظافرين اكتشافنا لمنجم ذهب.. ولانسأل بعد ذلك عن ضعة ما كان فيه :

هل هو تراب رخيص أو رمل زهيد أو طمى قذر أورخام ناعم؟ أما الشعر التقليدى العمودى فالذى يبهرنا فيه ونفحصه، هو المحتوى : هذا الرخام المصقول وهذا الرمل البراق، وهذا الطين اللامع.. وغير ذلك من الأوصاف والألفاظ المؤثرة بالإيقاع فى الأسماع الخاطفة للأبصار.. ولذلك

(*) ٥ يوليو ١٩٨٦ (مجلة الإذاعة).

يكفى أن نسمع بيت شعر عمودى منظوم حتى نصيح : اللـه .. أعد .. أعد" فهو قد خاطب الحواس وظفر بها .. وهذا مالا يوجد عادة فى الشعر الحر.. وهذا مايأخذه عليه البسطاء.. لأنك لاتستطيع فيه أن تقول "الله .. أعد".

إنه يقرأ ولا يسمع ليؤثر بالسمع، بل يكتشف بالتحليل المتأنى كما يكتشف عرق الذهب المختلط بالتراب ..

لذلك كثر فيه مع الأسف الكذابون والدجالون والمقلدون الذين يقدمون لك أكوام التراب والحصى ولا ذهب هناك.. ولكن الشعر الحر الحقيقى عندما تكتشف فيه عرق الذهب المختفى فيه فإنك تفرح للاكتشاف، وتبقى لذة الاكتشاف مستمرة، لأنها ليست خاطفة، وتشعر المكتشف باحترامه لنفسه لأنه اكتشف من بين التراب ذهبا.. وهذا فضل الشعر الحر، وصعوبته أيضا لأن قيمته فى ذاته .. لأنه لايعتمد على ما يخطف به الأبصار ويستدر به التصفيق والهتاف .. فهو لايحتاج منك أن تصفق له بل أن تكتشفه .. ولذلك إذا أردت الدفاع عن شعراء الشعر الحر الموهوبين الذين اتهموا بأنهم حطموا القيود عجزا واستسهالاً.. فإنى أقول :

العكس هو الصحيح، فهم قد حطموا القيود كما يحطم الفارس الشجاع درعه، وينزل إلى الحلبة عاريا ليس معه سوى قوته الذاتية الحرة وحدها.

النموذج القرآنى

قد يسأل سائل : ولماذا نصحت أصحاب الشعر الحر بالانتساب إلى النموذج القرآنى ؟

أقول وأصر على هذا القول : إن القرآن يتميز من حيث الشكل بأنه "شكل حر" أى أنه لايتقيد بنظم ولابقافية .. وهذه الحرية التامة نبع منها هذا التعبير العظيم.. ولم يكن قصدى كما فهم خطأ، أنه المحاكاة من حيث الموضوع والمضمون .. لأن الموضوع والمضمون هو من عند اللـه تعالى ولايصح مجرد التفكير فى محاكاته او مجاراته بأى وجه من الوجوه.. وإنما

يجوز فقط الانتساب إليه من حيث الحرية والشكل الحر .. وهذا يكفى للتأصيل .. ولا حاجة إلى الالتجاء إلى أدلة ضمنية مثل التفعيلة، ونحو ذلك.

لأن الشعر الحر إذا قيد نفسه بالتفعيلة فإنه لايصبح حرا.. ويفقد صفة الحرية.. ويكون قد تحرر من قيد ليقع تحت سلطان قيد آخر. "التفعيلة".. ويتعرض للنقد السطحى الذى يركز على "التفعيلة" المكسورة والصحيحة، أنا أريد للشعر الحر حريته الكاملة اقتباسا من حرية "القرآن".. وذاكرتى الضعيفة اليوم تخيل لى أنى لمحت يوما فى كتاب أخير للمرحوم "صلاح عبدالصبور" بعض آيات قرآنية لم تسمح لى ظروفى وقتذاك بتحرى ذلك وأسبابه، فهل تراه قد فطن إلى أهمية هذا الشكل الحر فى القرآن؟ لست أدرى.. وأرجو مراجعة ذلك فى كتبه.. وأنا اليوم بحكم سنى وصحتى لايمكن أن أبذل مجهودا يذكر فى أى شئ.. ولولا رغبتى فى أن يكون للقرآن الكريم فضل فى توجيه الشعر الحر الجديد، لما تحركت..

ومن حسن الحظ أنى تحركت لرفع ظلم عن الشعر الحر الجيد.. فالشعر كله في حياتي الادبية لم يكن من اهتمامى، وأذكر مع الأسف أن الصديق الشاعر الرقيق "إبراهيم ناجى" قصدنى فى الثلاثينات لأكتب له مقدمة ديوانه الأول "من وراء الغمام"، فأحلته على غيرى.

.. أما الشعر الحر اليوم فقد سمعت الضجيج الآن عن حريته.. وأنا بطبعى مع الحرية فى الفن والأدب لأنها من باب التجديد.. ولكن الباب المفتوح يغرى بالدخول لمن يستحق ومن لايستحق ويؤدى أحيانا إلى الفوضى.. ولذلك استرحت الآن واستراح ضميرى إذ وقعت بين يدى أعمال من هذا الشعر لثلاثة من البارزين فيه.. هم "إبراهيم أبوسنة وفاروق شوشة وأحمد سويلم.. فاخترت نماذج قليلة من هذا الشعر الحر الحقيقى.. وكان بودى أن أكثر من الاختيار لولا مساحة النشر.. ولكن ذلك يكفى لإقناعنا أن التراب الذى يملأ الأرض قد نجد أحيانا فى القليل منه "عرق الذهب"

وها هى ذى النماذج..

ق

نموذج لفاروق شوشة :

هذا أنا
وفى نهاية الطريق انت
واحة شهية، سحابة سخية تمر
أدمنت ظلها ولا مفر
تسألنى عيناك عن نهاية الطريق
أحار .. لا أجيب
يجلدنى سؤالك الصموت ألف مرة
ويخرس الكلام فى فمى
ويبدأ الحريق فى دمى
ولا أجيب
وتستحيل لحظة اللقاء غصة وبعض بوح
لكنه السؤال فى عينيك ما يزال، والحريق
لا أطيق
وانطفأ السؤال
فليس من بداية ولانهاية
لرحلة تدور فى المحال
ترى يجود العمر مرة بلحظة اكتمال
فتسقط الحدود والسدود من طريقنا المرصود
وتسقط الأقنعة التى تعافها الوجوه والجلود
وتستريح بيننا العيون من فجاءة الزلزال.
هذا أنا
وفى نهاية الطريق .. أنت
والآخرون بيننا.

يتملكنى محرابى

ونموذج آخر لأحمد سويلم :

اننى الآن أرقب خطوك :

أجريت عينى فى فلك الشمس
عيناى سابحتان مع الضوء
فى عربات السماء
احدث عنك النجوم.
أكلم عنك الرياح
أمهد فى الصحراء
- أعددت من زمن كل شئ
فى الصباح .. ينقر فوق نوافذك الطير
يغمرك الظل عند الظهيرة
فى الليل ..
تجتمع النجمات البعيدة فوق فراشك
- أعددت من زمن طرق الحلم -
صوتك سنبلة - صار - بين ضفاف الجداول
وجهك أسطورة - صار - بين التواريخ.
بين البحار .. وبين المدائن
- اطوى اجنحتى عند الأسوار
جئت اعانق ضوءا شفقياً ..
يتقاطر من شباكك..
يتملكنى محرابى ..
هذى صلواتى - أولد فيها ..
أنثر فى أعتابك أشواقى .. فى دفء الليل.
- ذهبى وقتك .. ممدود وقتى
هذا عمرى الأول والآخر ..

هذا قلبى عصفور منفى..
هذا مزمارى – أطواق نجاتى –
انقدم .. ملكوتك فى عينى ..
من أجلك اختصر العالم ..
أصل نهارى بنهارك ..
لاتقهرنى الظلمة فى أعمدة النسيان

يستسلمان فى الكهوف

وهذا نموذج اخير لإبراهيم أبوسنة :

سألتنى فى الليل الأشجار
أن نلقى أنفسنا فى التيار
أن نتجه إلى النهر القادم
.. من أعماق اليأس إلى أقصى المجهول
نحمله فى ذاكرة محكمة الإغلاق
ثم نفر من الغول

ويقول :

سألتنى أن اختار
مابين الجنة والنار
قلت أحاور قلبى :
– ما معنى الجنة يا قلبى ؟
– قال : تجول فى نفسك حتى تصل إلى الإنسان
وتجول فى الإنسان إلى أن تصل إلى وطنك
وتجول فى وطنك حتى تصل إلى الله
– قلت : وما معنى النار ؟
قال : خواء الأشياء من المعنى
أن تصبح شيئا كالأشياء
يشرى ويباع
أن تتصاع إلى مالا يدخلك إلى ذاتك
ان تسكنك الأشياء الباردة القاع

ويقول :

عيناك طائران ليليان
توقفا على القمر
من بعد رحلة طويلة السفر
مراوغان كالقدر
تفتحت فى الغور منهما العصور والفصنول
يستسلمان فى الكهوف يصحوان فى المطر.
مسلحان بالجمال والألم

* * *

وهذه المعركة الشعرية التى خاضها الحكيم وحرصنا على إعادة نشرها كما جرت وقائعها، تدل دلالة قاطعة على علو مكانة الشعر عند الحكيم - خاصة الحديث منه - حيث أراد أن يجعل له أصلا عربيا قرآنيا، كما جعل للتمثيلية الأدبية العربية التى أسسها فى الأدب العربى ذلك الأصل حين استلهم رائعتة "أهل الكهف" من سورة قرآنية.

رسالة الشعر عند توفيق الحكيم

تأسيسا على ما سبق "يمكن القول إن الشعر يحتل عندالحكيم مكانة متميزة بالقياس إلى نظريته الأدبية وإلى رؤياه الإبداعية ومكانة الأنواع الأدبية فيها"[١].

فرغم أنه كاتبا مسرحيا فى المقام الأول إلا أنه يرى الشعر يحتل المكانة الأولى بين الأنواع الأدبية فيقول صراحة "أعترف بأن أعظم الأعمال الفنية فى الأدب هى الشعر أولا. والمسرحية ثانياً"[٢] لأن الشعر بتعبيره هو

(١) الحكيم ونظرية الشعر - مقال د. عبدالعزيز شرف فى الكتاب التذكارى "توفيق الحكيم - الأديب. المفكر الانسان" عن وزارة الثقافة - المركز القومى للآداب ١٩٨٨.

(٢) المصدر السابق.

"معجزة فنية، لأن آلاف الأفكار والصور والأخيلة والمشاعر يجمعها الشاعر فى سطر واحد، هذا السطر العجيب الذى تراه ينتفض، وأنت تقرؤه، بهذه الآلاف من الأفكار والمشاعر والصور.. إن بيت الشعر يشبه طاقة مسحورة صغيرة، تطل منها النفس، على الوجود البشرى بتجاريبه وأفراحه ومعانيه"[١].

أو كما يقول أيضا إن الشعر هو "فن إيجاز وإيحاء" وهو "خلاصة الثقافة وعصارة الذوق"[٢]. لذلك يرى الحكيم أنه "ما من فن عظيم بغير شعر أى بغير تلك المادة السحرية التى تجعل الناس يدركون بالأثر الفنى ما لايدركون بحواسهم وملكاتهم[٣]. ولهذا يعتبر الشعر عند الحكيم هو أبو الفنون.

هذه هى قيمة الشعر عند توفيق الحكيم ، ولكن ما هو مفهومه لطبيعة الشعر؟

إنه يراه "خارجاً على الطبيعة.. وهل الشعر بنظمه وقوافيه وأوزانه الموسيقية – إلا من الفنون الخارجة على الطبيعة.. ومادام هو كذلك فيجب أن يؤدى متسقاً لا مع الطبيعة، ولكن مع غيره من الفنون التى تتصل بها "التراجيديا"[٤].

ولكن الحكيم يرى أيضا أن الشاعر لاينفصل تماما عن الطبيعة لأن "قلب الشاعر مقياس حرارة يتأثر أحيانا بمظاهر الطبيعة فيبكى لبكائها، دون سبب آخر يدعوه إلى البكاء"[٥].

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) "زهرة العمر" لتوفيق الحكيم.

(٤) نفسه .

(٥) المصدر السابق.

بل إن الحكيم يذهب فى فهمه للشعر إلى ما هو أبعد من مجرد الخروج على الطبيعة فيرى الشعر جنونا محببا له قصر يليق بجماله وعظمته فيقول "إذا جن الإنسان دخل مستشفى المجاذيب، وإذا جنت الكلمات والمعانى دخلت قصر الشعر"(١). لأن رسالة الشعر "تنبع من الحرية دائما لتبشر بالحرية" (٢)

إذن ما هى مهمة الشعر عند توفيق الحكيم؟

إنها مهمة سامية رفيعة كشأن الشعر نفسه بعلو قيمته وارتفاع قامته على كل فنون الأدب إذا كان شعرا حقا لأنه كما يقول الحكيم "ليس كل شعر فنا عاليا، لأنه يعظ أويصور أويرنم ! فالشعر الحق هو شئ أبعد كثيرا من مجرد إصابة الأهداف الظاهرة، أو تحقق الأغراض المباشرة، بل ربما انحط شعر فى عرف الفن العالى، لأنه اقتصر على صياغة حكمة أوتصوير منظر أو إحداث جرس.. إنما الشعر الحق قد يتوسل بهذه الأشياء لبلوغ مآرب أسمى : هو الارتفاع بالناس إلى سحب لا تُبْلَغ، والرحيل بهم إلى عوالم لاتنظر. هو أن يريهم من خلال كلماته البسيطة ووسائله البادية أشياء لم تكن بادية ولاطافية، فى محيط ضمائرهم الواعية. هو بالاختصار ذلك السحر الذى يوسع ذاتيه الناس، فيرون أبعد مما ترى عيونهم، ويسمعون أكثر مما تسمع آذانهم ، ويعون أعمق مما تعى عقولهم"(٣) . أو كما يعبر الحكيم بمعنى آخر حين يشبه رسالة الشاعر برسالة القمر "كلاهما يعطينا شيئا ممزوجا بطبيعته، مخلوطا بخصائصه" "فالسؤال الذى يلقى على الشعر هو السؤال عينه الذى يطرح على القمر : ما الذى تقصد إليه من إعطائنا هذا الضوء المهذب الجميل؟

أما القمر فيجيب :

---

(١) توفيق الحكيم بين الفكر والفن – الناشر الوطن العربى – بدون تاريخ

(٢) الحكيم ونظرية الشعر

(٣) "زهرة العمر" لتوفيق الحكيم.

لست أقصد بهذا الضوء أن أريكم واقع الأشياء، فإنكم ترون هذا الواقع مثلا واضحا فى وهج النهار، ولكنى أريد أن أدثر لكم الأشياء فى رداء جديد من نور وظلال، لأوقظ فيكم روح الوجود، وجوهر الكائنات، وأثير فى أذهانكم عوالم أخرى أجمل وأكمل من العالم الموجود وأجعلكم ترون فى ضوئى شيئا آخر غير الذى ترون فى ضوء الشمس فتحيون بذلك حياتين ، فيزداد وجودكم بذلك اتساعا.

ويجيب الشعر بمثل ذلك قائلاً :

أنا أيضا لست أقصد أن أريكم واقع الأشياء فى حقيقتها المادية، فهذا من شأن العلم، ومايجرى مجرى العلم من تاريخ وبحوث وتحقيق وإحصاء ، وتسجيل! ولكنى أريد بضوئى أن طرق أبواب تفكيركم، ومشاعركم، وأنمي فيكم ملكة التخيل والتأمل، وأجعلكم أنا أيضا تحيون حياتين : حياة الواقع الأرضى، وحياة الفكر العلوى"(١).

ورغم مخاوف الحكيم على مستقبل الشعر من سطوة العلم وضعف الثقافة إلا أنه كان يؤكد "أن علمنا بحقيقه القمر، لن يمنعنا من حب ضوئه الشاحب، ولن يمنعه من التأثير فى نفوسنا الشاعرة!. مادامت هناك نفس، مستقلة عن الرأس.. فلا خوف على الشعر من العلم"(٢).

أو كما يقول "إن متابعتى للشعراء فى السنوات الأخيرة، أكدت لى أن "العلم" لم يستطع هدم "الشعر".. فالحقيقة الفنية والحقيقة الدينية قبلها تستطيعان الحياة على الرغم من ظهور الحقيقة العلمية"(٣).

واهتمام الحكيم بالشعر وبمستقبله جعله يدخله ضمن نظريته فى الأدب والحياة وهى "التعادلية" التى تقوم فى "الأدب والفن على أساس قوتين يجب

---

(١) "فن الأدب" لتوفيق الحكيم.

(٢) السابق

(٣) من مقدمة توفيق الحكيم لديوان د. عبدالعزيز شرف "حب اولا حب" مكتبة مصر ١٩٨٧.

أن تتعادلا هما قوة التعبير وقوة التفسير"[١]. لاغنى لأحدهما عن الآخر "لأن التعبير وحده على علو قيمته الأدبية والفنية، قد يحبس أهداف الأدب والشعر فى نطاق التهذيب الروحى والإمتاع النفسى، ومهما يكن نبل هذه الأهداف وكفايتها، فإن المطلوب من الأديب أو الشاعر - خصوصا فى العصر الحديث، أن تمتد رسالته إلى أبعد من هذا النطاق.. المطلوب منه "أن يهذب ويمتع، ثم يلقى فى نفس الوقت ضوءا كاشفاً موجها فى طريق الإنسانية، فالأدب أو الفن يجب أن يكون معبرا ومفسرا : أى أن تتعادل قوى التعبير وقوى التفسير فى الأثر الأدبى أو الشعرى"[٢].

"والتعبير كما يقول الحكيم - يشتمل الأسلوب والموضوع.. الشكل والمضمون، وبه يمكن أن يتم الأثر الأدبى أو الفنى فى ذاته.. أما التفسير، فهو - كما يقول الرسالة التى يحملها الأثر الأدبى أوالفنى بعدئذ للبشرية ليقول فيها كلمته عن وضع الإنسان فى كونه وفى مجتمعه"[٣].

ورسالة الشعر لها أهميتها الكبرى سواء فى الشعر القديم أو الحديث فهو يرى فى البحترى معبرا، وفى أبى العلاء معبرا ومفسرا لرأيه فى وضع الانسان ومصيره، "ويصرح الحكيم فى، أدب الحياة، أنه ليس "ممن يتمسكون بعمود الشعر القديم وأوزانه وقوافيه بغير جدال ومناقشة" يقول : أنا مستعد دائما للإصغاء إلى كل رأى جديد. وليس كل شعر يدبج على الطريقة القديمة يعجبنى" فالمسألة ليست مجرد امتلاك لقاموس عربى يجيد صاحبه القوافى والأوزان، أو كما يقول الحكيم "ليس بشاعر حق ذلك الذى يقدم الصخرة ولايفجرها حياة ، وليس بشاعر حق ذلك الذى يغرف من نهر النثر كلا ما ككل كلام"[٤].

---

(١) نفسه.

(٢) الحكيم ونظرية الشعر

(٣) السابق.

(٤) السابق.

"ويدفع به مذهبه التعادلى إلى أن يكتب "تحذيرا للشعر الجديد" يقول فيه "قد يظن بعضهم أنك إذا أردت أن تكون شاعراً جديدا فما عليك إلا أن تأتى بموضوع مما تتناوله الصحف اليومية وتكتبه نثراً، ثم تقسمه إلى جمل مختلفة فى الطول والقصر، وتضع كل جملة فى سطر، ولابأس من أن يكون فى السطر كلمة واحدة أحيانا أو كلمتان، وحبذا لو كان بين السطر والسطر سجعة أوسجعتان، ليقع من ذلك فى الأذن مايشبه الدوى أو النغم. "كلا. ليس هذا إلا الشعر الجديد الكاذب، لا الشعر الحقيقى. إن الشعر الجديد الحقيقى يعجبنى شخصيا وإنى أرى أصحابه مجددين حقا وحتى وإن حطموا كل القيود القديمة ذلك لأنهم شعراء. شعراء بالهبة على الرغم من كل شئ"(١)

* * *

المفاجأة

نصل الآن إلى المفاجأة التى تأتى فى سياقها الطبيعى وهى هذا الديوان الذى كتبه توفيق الحكيم مؤكدا فى تقديمه أن "هذه الطبعة خاصة ومحدودة تماما وكلية للأصدقاء" هم بالطبع الأصدقاء الذين يثق توفيق الحكيم تماما أنهم لن يبوحوا بسر هذا الديوان المجهول.

ولكن لماذا فعل توفيق الحكيم ذلك؟ ولماذا لم يجرؤ كعادته فى الجرأة والشجاعة أن يعلن ما يعتقد أنه صحيح ويؤمن به؟

هل لأنه خشى من الهجوم عليه باعتباره دخيلا على الشعر والشعراء فاكتفى بكتابة المقدمات لشعر الشعراء كما فعل مع "فاروق جويدة" ، و"عبدالعزيز شرف"

وخوض المعارك مع الشعراء، فقط؟ ولكن منذ متى كان الحكيم يخشى المعارك والهجوم عليه إذا كان يعتقد أنه شاعر بالفعل، أم أنه كان سيئ الظن بنفسه فى هذا المجال فعبر عن نفسه بالفرنسية وفى طبعة خاصة ومحدودة تماما لخاصة الأصدقاء؟

---

(١) السابق.

تبقى الأسئلة مطروحة وتبقى الإجابات مفتوحة بغير تحديد للإجابات الصحيحة وإن كنا نحاول أن نتعرف من النقاد والمتخصصين على أقربها للصحة والإقناع، غير أنه لاشك فى أن ظهور أشعار مجهولة لتوفيق الحكيم مسألة تستحق البحث وإعادة النظر فى الكشف عن جانب جديد من جوانب توفيق الحكيم الإبداعية إذا كانت تستحق التوقف عندها.

والملاحظ فى هذا "الديوان "إذا اعتبرناه ديوانا أن أغلب مقطوعاته قد نقلها الحكيم بنصوصها العربية – التى سبق نشرها فى كتابه "رحلة الربيع والخريف" ١٩٦٤ – إلى الفرنسية فى سنة ١٩٨١. ومن المدهش أننا سوف نجد فى الصفحات التى حرص الحكيم على تقديمها فى بداية الكتاب المذكور تحت عنوان "كتب للمؤلف" نشرت باللغة العربية" يذكر أمامه حين يأتى بيان "رحلة الربيع والخريف" بين قوسين على أنه "شعر".

وقد حرصنا على تقديم النص الفرنسى فى نهاية النص العربى حتى تلك النصوص التى سبق للحكيم نشرها بالعربية مع الإشارة إلى ذلك، حيث يكتسب تحويلها إلى الفرنسية بعداً جديداً فى الدلالة على حرص الحكيم على تأكيد ريادته خاصة وأنه لم يضع عنوانا لديوانه مكتفيا بوضعه تحت عنوان "قصائد عربية" وهو أكثر إيحاء ودلالة على أن الحكيم كانت لديه القناعة أن ماكتبه كان تعبيراً عن هذا الشعر العربى ونموذجا يستحق أن ينيب عنه، وإن لم يعلن عن ذلك بوسائله الدعائية المعروفةعنه نشراً وترويجا وتأكيداً لسبقه وريادته وإن لم يغب عنه أنه حين ينتقل إلى عالم الخلود لن يبق السر سراً وإن تظاهر بذلك حين جعل "هذه الطبعة خاصة ومحدودة تماما وكلية للأصدقاء" لأنه يعلم جيدا أن السر لن يكون سرا طالما انتقل من صاحبه إلى غيره من الأصدقاء.

ومن بين واحد وثلاثين نصا هى عدد نصوص الكتاب أو الديوان، سمه ما شئت، نقل توفيق الحكيم واحداً وعشرين نصاً عربيا إلى الفرنسية من كتابه "رحلة الربيع والخريف"[٣] ليصبح الجديد الذى أضافه عشرة

نصوص، فهل هذه النصوص المضافة كانت لديه ضمن النصوص القديمة التى كتبها فيما بين ١٩٢٦، ١٩٢٧ كما ذكر فى كتابه "رحلة الربيع والخريف" وهى النصوص التى ذكر أنه مزق كثيراً منها، أم أنها نصوص جديدة كتبها حين أراد أن يطبع كتابه أوديوانه بالفرنسية؟ غير أن الأكثر جدارة بالاهتمام فى هذا الاكتشاف الأدبى المثير هو ما الذى أراد أن يقوله الحكيم؟

إن قراءة هذا الكتاب أوهذا الديوان تحمل لنا حكمة الحكيم وخلاصة تجارب السنين ومحاولتة إشاعة البحث والتأكيد على القيم الإنسانية النبيلة كالحب والعدالة والخير والسلام والحرية والإيمان، وهى قيم تسرى فى أعمال الحكيم وإبداعاته.

* * *

ثمة مفاجأة أخرى غير الديوان المجهول المطبوع المنشور بالفرنسية لتوفيق الحكيم، وهى قصيدة بعنوان "مجنون الأميرة الفرعونية" كتبها الحكيم تحت اسم "شعر منثور قديم لتوفيق الحكيم" ، مؤرخا إياه بسنة ١٩٢٦، أما مكانه ففى باريس حين تأثر هناك بالفن الحديث كما أشرنا من قبل فشرع فى كتابة بضع قصائد شعرية نثرية منها هذه القصيدة "مجنون الأميرة الفرعونية، التى ننقلها عن النص المخطوط بقلم توفيق الحكيم بالقلم الرصاص الذى اعتاد الكتابة به فى أغلب كتاباته، على ورق متوسط الحجم يميل إلى الاصفرار، وقد جعلنا مكان هذه القصيدة الشعرية المنشورة بعد نهاية النص العربى "قصائد عربية" لتوفيق الحكيم، أثبتناها كما هى بخط يده.

ويبقى حق الشكر واجبا لكل من شارك فى الترجمة من الفرنسية إلى العربية منذ الإضاءة الأولى لهذه النصوص التى قامت بها الزميلة الصحفية "نيرمين البحر" حتى أعطتها ملامحها المعقولة الأستاذة "نشوة الأزهرى" المترجمة بجامعة الدول العربية، إلى أن تحملت المسئولية كاملة الدكتورة

كاميليا صبحى مدرس الأدب والترجمة بقسم اللغة الفرنسية بكلية الألسن باعتبارها المسئول الأول عن ترجمة العشرة نصوص من الفرنسية إلى العربية مسئولية أدبية ومعنوية فلها منى خالص الشكر والتقدير فلولاها كمترجمة، ولولا الشاعر الكبير عبدالرحمن الأبنودى الذى أسعفنى بالناشر فى زمن خيالى - فله منى كل الحب - لمرت الذكرى المئوية لتوفيق الحكيم دون أن يكون هذا الكتاب أو هذا الكشف الأدبى بين أيدى قراء العربية فى توقيته الذى حرصنا عليه تحية ووفاءً لذكرى الرائد الكبير.


قصائد عربية
لتوفيق الحكيم

إخلاص(*)

من جوف الليل
علا صوت امرأة
مناجيا السماء
" يا ألله .. يا من له الخلود
باسم حبك الذى وهبتنى
اغفر لى ."
قلت لها:
"يا امرأة أضلها الكرب
أثقلها الاضطراب
بل ابتهلى وصلى
باسم حبى لك
قالت:
لا ، لاتحسبها أعظم وأبدع المعجزات
فإن يسبغ علىَّ العلى القدير
يغمرنى أنا
أضأل ، أحقر خلقه
بحبه الخالص العظيم
تلك هى المعجزة

(*) ترجمة د. كاميليا صبحى والنصوص التى تليه حتى نص "عدالة"

قبران
توأمان ، جميلان
منعزلان فى البيداء
كحمامتين
شردهما إعصار
أوى إليهما عاشقان
أثقلت التعاسة حياتهما
ثم كانت المعجزة
انبثقت
من جوف القبرين
التوأمين الجميلين
شجرتان ، مورقتان
تشابكتا
تعانقتا
بأوراقهما
حتى بدت .
وكأنها القبلات
ويقولون
أبدا.. مذ عرف الحب
قلب الانسان
ما نمت مثل هذه الأشجار
فى مثل هذا المكان..

(٣)

بطتان
أنثى وذكر
يمضيان أيامهما
بكل جمالها.. وقصرها
فى عشه .
حتى كان صباح
امتدت يد قاسية.. لاهية
التقطت الذكر
ذبحته
على مرأى من أنثاه
اهتاجت الأنثى
وبضربة جناح
أفلتت
ارتمت
فى الدم المراق
دم ذكرها المذبوح
ثم
فاضت روحها..

شمس غاربة
فى أفق بنفسجى
سألت جبل المقطم
كيف صرت أقرع هكذا
إلى هذا الحد .
أجاب : "ذات يوم
كنت أكثر الجبال خضرة
وارفة ظلالى
بالاشجار، بالأزهار
حتى كانت ليلة
سمح فيها الإله
لموسى
أن يطلع على محيّاه
من فوق أحد الجبال
احتجت باقى الجبال
كمداً .. حسداً
باستثناء " الجليل"
جبل صغير
أظهر تواضعا
آثر الاستكانة
فانتثرت زينته كلها
بخضرتها الوارفة، بورودها
على واديه..
فجاء أمر الله للجبال
أن أقرضيه ما يكسوه
فمنحته أنا " المقطم"
كل ما كان يعيننى
على التزين، والكساء
حتى.. أصبحت عاريا.

أنت يامن تحلّقين

العزيزة أرضنا

أمّنا. أرضنا

بعيدا عن ديارنا، حمامنا، أفقنا

فإنْ تجاوزنا مرّةً

حدودنا، قانوننا

ستفنين

أو تعيشين

تتضورين جوعا

أو تشهدين

ماضياً ينتهى

فى البدء كان الخلق
خلق الله الريشه
خلقها من نور أبيض
من لؤلؤة نادرة
كشحرور أبيض
لؤلؤة ضخمة
طولها ما بين السماء والأرض
عرضها ما بين المشرق والمغرب
خلقها .. نظر إليها
فإذا بها تتشطر من نظرة جليلة
ليس فيها شىء من كبر
وانساب المداد
من جسدها المنفطر
وسيظل ينساب
ليوم الحساب
أمرها الله
أن" اكتبى"
فلم تدر أى شىء هى كاتبة
قال: " اكتبى معرفتى" ولكائنات الارض
زيدى :
إن "رحمتى سبقت غضبى"

بالنسبة للانسان

الحصان ، حصان

أحمر، أبيض ، أسود

أيا كان

بالنسبة للإنسان

الزهر ، زهر

أصفر ، بنفسجى ، أسود

أياكان

بالنسبة للإنسان

الإنسان ليس إنسانا

إن لم يكن

من نفس اللون

الإنسان الأول .. يقتُل

حينما قتل قابيل

هابيل

ارتجت

الارض البكر الجميله

فكان أول زلازلها

والشمس

اللامعة كما الألماس

انخسفت

ونبتت

شوكة فى الزهرة

وبعد أن كانت

مياه البحر عذبة

أصبحت مُره

على متن صاروخ ..
انطلقنا
صوب قمر ساطع ..
مخرنا الغيم
عبرنا البحر المائج ..
وما كنا نعرف
أن ثمة قمرا آخر
أبهى وأجمل
فى انتظار أن يكتشف
قمر ..
لا هو فوق رؤوسنا ..
ولا هو بكوكب
يثقل بمخاطره نفوسنا ..
ولكن، أى صاروخ
يقلنا إلى هذا القمر
لا أحد يعلم ..
لا أحد يفكر
فى اتخاذ خطوة
نحو هذا القمر النبيل
الذى يتلألأ كالماس
يناجينا ، ينادينا
فلا يجد غير الصدود
والصعود
لرحلة خيالية
فيقول لنا بمرارة :
"أبصرونى أيها البشر البائس
أنا أقرب إليكم، أنفع لكم
عليكم أولا ببناء صاروخ
مسحور كما فى حواديت الساحرات
ليحملكم إلىّ
أنا واسمى: السلام

حينما أراد الله ..
أن يهب الإنسان النار
أمر جبريل
ملك السماء ..
أن اهبط إلى الجحيم
فسل حارسها
بعضا منها
فلما أتاه جبريل سأله الحارس
"أى قَدْرٍ تريد، ولأى سبب"
فأجاب : "حجم تفاحة .. فيه للإنسان كفاية "
قال الحارس : "أيها الملكُ الطيب ..
أوتدرى
أنّ نارًا بهذا الحجم
تُحيل السموات السبعَ والبحار
رمادًا؟!
"لتكن إذن بحجم "جوزة"
فجاء صوت الحارس متمهلاً، متحيراً :
"نار من جحيمى بقدر "جوزه"
تُبدد الماء فى السماء
تُجْدِب الزرع فى الأرض"
"أيا حارس الجحيم الأعظم،
أى قدر مناسب إذن؟
أجاب الحارس : "إن أردت خدمة الإنسان
دون أن يحال إلى رماد
فخذ مثقال ذرّة
بالكاد.

قال ملكُ الموت :
"لو أن مياه الأنهار والبحار
سكبت فوق كتفى
لما تخطت قطرة واحدة ..
حدود جسدى
فالأرض كلها تبدو فى كفى
قطعة نقود معدنية،
مائدة حافلة بطعام ..
مُعَدٌّ لعشائى.
ذات مساء ..
سيكون عليه إفناء البحور
فينظر إليها ، يقول :
"حانت الساعة "
فتستجديه قائلة :
"أيا ملك الموت
ألا انتظر ..
ألا تسمحُ لنا بلحظة
نسكب فيها الدمع
على أمواجنا - زبدنا لآلئنا - كنوزنا ؟
فتنطلق صيحته الرهيبة
لتنزوى البحار والمحيطات
يضمها العدم
فينظر للجبال : قائلاً :
" حانت الساعة "

فتسأله الجبال لحظات تبكى
صلابتها، شموخها
ولكنها، ستغدو مع صيحته
بوديانها، بقممها ..
كفقاعات صابون
فيحين دور الأرض
فتظل تبكى، تنتحب
عند سماعها
"حانت الساعة"
تقول .. "أين ملوكى، شرائعى
حضاراتى، مجدى، علمى، تاريخى؟"
وقبل أن يُطلق الملك القاسى
صيحته المدوية ..
ليفنيها
سيواسيها، يهمس لها
كما تهمس فى الأذن
بصوت عذب واضح النبرات :
"ستفنين
ولكنك اكتشفت أكبر معجزتين
لايساور أى كوكب آخر
مجرد شك فى وجودهما
إنهما
" الحب .. والأمل "

عـدالة

فى دنيا النمل
راحوا يشربون، يرقصون
يحتفلون بالنصر
ألقى خطيب كلمته على الملأ
مذكراً بيوم ..
تغلب النمل على عقبة
فكانت معجزة
خرجوا من كل صوب ومكان
فى جيش منظم البنيان ..
لعبور جدول ماء
على زوارق من الورق الميت
قال لإخوانه :
"أتدرون مكمن عظمتنا
الذى ينقذنا من كل هاوية
إنه النظام
فضحك أحد الفلاسفة هازئاً :
"كى تكون عظيما، لابد أن تكون عاليا
ولكننا فى غياهب الأرض،
لانرى سوى الظلمة

فلننظر لأعلى ..
ثمة عالم من ضياء
عالم العصافير
تعيش حرة طليقة
حينما تردد لفظ الحرية على هذه الأرض
كان صداه مدويا
وراحت كائنات الظلمات تقول :
"لماذا نحن محرومون
من هذه النعمة
التى تصنع عظمة عالم الطير
وسرعان ماتشكل وفدُ
من أحكم حكماء النمل
لسؤال العصافير عن سرها
راح النمل بخطواته الوئيدة
يتسلق جذع شجرة
كان الطريق طويلا. طويلا
حتى القمة الساطعة
حيث يعيش العندليب
يشدو فى عُشه
سأل العندليبُ المغرد :
"ماذا تصنعون هنا ؟ "
- "جئنا نسألك عن سر عظمتك"
فقال العندليب ، بصوته المغرد العذب
"كم أنا ضئيل مقارنة بالكواسر
التى تحوم حول الجوار
قال النمل :
" تملك حريتك "
- أصبتم ياصديقاتى الصغار
ولكن ما الحرية سوى جناح
لانستطيع التحليق به وحده
فى السموات الفسيحه
فهناك جناح حافظ آخر
أتعلمون ما اسمه ؟
إنه العدالة"

أشاعت هذه الكلمة الغريبة
الاضطراب من جديد فى نفوس الكائنات الضئيله
"أنت، يا أعجوبة الطبيعة،
يا مغرد الليل والفجر،
لاتملك هذه "العدالة"؟
"لا .. وا أسفاهُ
لا أحد على وجه الخليقه
يملك هذه الهبه
لا فوق الأشجار ..
ولا فى أعماق البحار
ربما .. كائن واحد
يستطيع الادّعاء
بأن لديه قدرًا ضئيلاً
من هذه الثمرة الإلهيه
ليصبح كريم النفس
إنه "الإنسان"

صلاة الفنان .. (*)

إطار صورة ملونة
يسمونه نافذة
والرسم حى يتحرك فى الفضاء
أشجار كأشباح البشر
وسنابل من الناس تموج
ونجم يلمع فى السماء كقطرة ماء
والبحر أزرق كالصور

* * *

والشمس تلعب عند الشفق
بصندوق ألوانها فى الأفق
والفن ينبض وحده بلا فنان
والقلب يهتف من أعماقه بصلاة
بصلاةٍ يسمونها دهشةً

(*) هذا النص منشور فى كتاب توفيق الحكيم "رحلة الربيع والخريف" ١٩٦٤، وكذلك النصوص التى تليه حتى النص المنشور بعنوان "أين المصير"

تجدد الكون ...

السماء تتثاءب فى كل حين
من سأم الخلود
تلهو بفمها العريض
وتنفث فقاعات صابون
تتألق بالألوان والأضواء
ثم تتركها تتفجر وتفرقع فى الفضاء

* * *

ويعود الفم العريض
من سأم الخلود
إلى الفراغ
يعود ثم يعود ثم يعود
إلى لهو الأطفال الأبرياء

نشوة ..

رفعت كأسى إلى فمى
وقد انطلق فى الكأس الحباب
رشفت منها رشفةً
ثم وقفت فجأةً
لقد ابتلعت كوكبًا
وعندما ارتدت الكأس الضباب
وغطت رأسها الثلوج
بزغ الإشراق فى قلبى
وصاح الديك بفجر جديد

شكوى ..

إذا كنت عصفورًا

فإنى دودةً

منقارك يشدو بغناء

أصوغه من أحشائك

تبحثين فى الطين عنى

لكنى أغنى

أغنى وأنا فى فمك

وأنت لا تسمعين

لا تسمعين غير غنائك

عين ذهبية تطل علينا
من برقع مثقوب
هكذا يقولون ولكنى أقول
هى سن ذهبية لإلهة لعوب
تضحك لنا بملء الفم
فيصفق لها النبت فى الحقول
ويزول من الصدور الغم
ولكنها تذهب
ولايبقى منها إلا حاجب يلعب
إلى أن ينام فى الظلام

زهر البنفسج انتثر
وفوق جدار الأبد تدلّى وانتشر
لون وأريج وربيع
صبة على الكون صبًا من آنيتها
أنهار بنفسجية تتصاعد من نافذتها
تفيض على بطاح الأرض ووديان القمر
كل شئ فى ربيع غرق
وعندما أغلقت نافذتها
كان قلبى قد احترق

لست وحدى فى الكون ...

أسمع أصواتا ولست أرى
أسمع موسيقى الضياء ولا أرى
حناجر جوقة تشدو ولاتدرى
بأى رحيق ريقها يجرى
من الذى وضع الألحان فى فمها
وكلها تتلاقى عندى فى انسجام
إن لم تكن الخليقة شعرًا فماذا تكون
إن لم نكن نحن كلمات شعر فمن نكون
من الذى بنا يترنم
من فم واحد متعدد الأنغام

أيتها الأذن اسمعى اسمعى هناك
ماهذا السكون الجاثم كالحيوان النائم
حيوان ميت لا تصعد من أنفه أنفاس
إنه النعاس كل شئ فى نعاس
أين ذهبت العصافير من عشنا
ولكنى واثق أن بيتى هناك
أيتها الأذن اسمعى اسمعى هناك
أما من كلام أما من صخب ..
حتى الهمس ووقع اللمس قد ذهب
ما من صوت غير صوتى أنا من هنا ..
أين حديثنا وضحكنا وغناؤنا
ولكنى واثق واثق أن بيتى هناك
أيتها العين انظرى انظرى هناك
ما هذا الشئ الداكن تحت رموشك ..
أهى أرض أهو ماء أهى سماء
كل شئ مطحون طحناً معجون عجنًا
فى تلك الكتلة الغامضة السوداء
ولكنى واثق واثق أن بيتى هناك
أيتها العين انظرى انظرى هناك
ما هذا الموج الأبيض تحت رموشك
أهو قطن مندوف أهى فروة خروف
ما بال كل شئ هكذا قد أريق
كأنه لبن صب من غير إبريق
ولكنى واثق واثق أن بيتى هناك

هواجس ليلة بيضاء ...

تتفس صبح من أنوف خيول

تركض لاهثة فى وهاد نفسى

أسمع فى أعماقى الصهيل

امنعوها من اللحاق بـأمسى

* * *

إنها فى غيوم تمرق

تتساقط من سنابكها شهب تبرق

وتغرق فى عيون سود

غريبة النظرات لنساء عاريات

يسعلن ويضحكن فى سوق النهود

مخمور يطرق باب الحان
ويخرج يهذى بالألحان
يسرق حلى زوجته
ويهديها لعشيقته
ويسرق حلى عشيقته
ويهديها لزوجته
من تكون زوجته
من تكون عشيقته
وجهان يصطرعان فى جوف الظلام
لحنان يختلطان من دون كلام
ويرن صوت الصمت فى كأس الزمان
ويسيل وهمًا من دنان الحان

الكون أسود الكون أسود

والنجوم تتناجى بالبريق

ليزول خوفها وتصمد

فى بحر التيه العميق

بحر المداد

تسبح فيه الطيور البيض

قبل أن تهوى فى السواد

الكون أبيض الكون أبيض

لآ لئ فى كؤوس تضئ الرؤوس

أسراب السحب وأسراب البجع

وثوب عروس

والليل مصبوغ بفجر مذاب

وميت يعطس فى الكفن

وصوت يقول أين المآب

وريح تنفخ فى الشراع

ليسبح فى بحار النهار

غطاء محكم الإغلاق

أزرق زرقة الأبد

زرقة ضمير طفل فى المهد

أغلق إغلاقا على جوهره

تلمع داخلها جمجمه

تحسب أنها وحيده

تقول كلاماً وتعيش غراماً

وتنام طويلا بعيون غير موجوده.

محاولة قبلة ...

عملة صفراء من ذهب ذهبت

فى مثل برقة العين هوت

وعلى رخام الأرض الأحمر تدحرجت

بصوت حلو الرنين

وفى ثقب اختفت

قالت الخادم الوقحة بابتسامة صفراء :

لا أمل ! .. دعنى أمسح الرخام

ثم جعلت تطلى بالأحمر شفتيها

ما أشد بريق الإبريق الفضى

يلمع كالفجر فى يد ساق زنجى

اقترب الساقى الزنجى وعيناه فى عينى

شعاع كالسيف اخترق الصمت وقال :

إذا قدّم الشراب إليك ساق أبيض

سالت الحقيقة فى جوف الكفن

وإذا قدم الشراب إليك ساق أسود

بزغت كالنجم من خلف الغمام

وأشار الأسود إلىّ بالإبهام :

انظر فى جوف الكأس تعرفها

ونظرت فى الأعماق أرجو باحثًا

إنها عينى أنا ترنو إلىّ

عروق ذهب فى جبل
جبل يسير على قدم
قدم تطير على عجل ..
عجل يمرق فى رخام
رخام جو من غيوم
غيوم حقل من نجوم
نجوم جسم من عيون
عيون جسم من نجوم
نجوم جو من سكون
سكون أصداف بحار
بحار كأس من ورق
ورق يفور ويحترق
ويحترق ثم يعود ..
يعود يجرى كجواد
جواد حلبة تضىء ..
تضىء من جوف عيون
عيون وحش فى فضاء
فضاء رأس ثمل
ثمل بكروم جبل
جبل عروقه ذهب
ذهب يشع فى هواء ..
هواء يلد هواء
هواء يتغذى بهواء ..
هواء من نسل هواء

دمية من خشب
ثيابها دمقس
ضفائرها أشعة شمس
أهدا بها مطر
تغمض وتفتح
فتغضب الشمس وتفرح
دمية خشبية
حياتها أبدية
لأن ما تصنع
أن تغمض وتفتح

اللامتناهى فى المتناهى

هبطت بعينى فى أعماق فنجانى
فرأيت الكون يخلق من جديد
هذا النقيع فى القاع له غبار
يهيم طليقاً فى فضاء مديد
أدرت فيه الملعقة
وإذا بدوامة تدور ثم تدور
وتجمَّع الغبار
فى كتلة دائرة معلقَّه
وبدا فى الأفق نجم وليد

أينها الحياة التى فينا

صهيل خيل

وصليل سيوف

وقصف رعد فى السماء

وخرير ماء

وتلاطم أمواج على صخور

وزئير أسود

وتحطم بلور على بلاط قصور

وشدو بلابل فى السحر

ونعيق بوم

ودبيب نمال على جذوع كروم

كل هذا لك أنتِ

قطعة لحم علامة استفهام

تماسيح تسيح

بمتاع وحقائب من جلد التماسيح

تخطر فى ثيابها الزّرد

وتذرف دموعًا من بَرَد

وتتمدد تتدفأ فوق عشب السحب

هلموا ياصاحب فقد حان المساء

والليلة ليلة عرسها

فلنرقص ولنشرب

فوق شفاه بركان

يدخن القنّب

أربع أقدام
ثم اثنتان ثم ثلاث
تدب على رمال الزمن
لغز أبى الهول الخالد
تسير عطشى كالإبل
طول الطريق

* * *

وصفير الريح يأتى كالأنين
مؤذنًا بالأجل
تسع أقدام كالعجل
تجرى تحمل السنين
كأنهار رمال فى رياح
إلا الطريق

شعر منثور قديم لتوفيق الحكيم (١٩٢٦م)

مجنون الأميرة الفرعونية

"نفرتيت" !.. ما أجملك !.. عيناك في صورتك العجيبة
تابوتان للأسرار ... يرقد في أحدهما الحب ... وفي
الآخر الحب !..

ما أجملك يا "نفرتيت" !.. رأسك ذو الشعر
الأسود شمس من الأبنوس ...
رأسك اللامع كرة ساحر تبهر البصر وتشعل
رأسي بدوار النشوة ...

يا نفرتيت الجميلة !.. نغمات صوتك فراشات
بديعة الألوان تطير في لطف ورقة من جوف
زنبقة حمراء ...

∴

نفرتيت !.. لم يصنع مثلك بغير ان تفنى عبقرية
ألف إله فرعوني !.. ولم يخلق نظيرك إله
فرعوني دون ان يصاب بالجنون ...

∴

قبلاتك يا نفرتيت عسل من نار ... بل خمر
من عصير اللآلئ في كأس من نار !..

∴

اني أغار ... أغار من زوجك "أخناتون" ..
انه الى جانبك ابدا ... فوق عرش واحد ...

تحنو عليكما هالة من أنفاس الآلهة ...
وتحف بكما العبيد بمراوح النخيل ...

∴

إني أغار ... الغيرة ... جمرات تخفق بين
فوق شغاف قلبي ...

∴

تعرفين ... أني أسد لامع بين يدي كوكب
أسود بين يدي إله ... كوكب لا نظير له

∴

أنت لي وحدي ... أنت كوكبي ... فلنسبح معا
بحار الفضاء ، تاركين خلفنا [illegible] ..
ولنبحث عن جزيرة الهناء الدائم ... تلك الجزيرة التي
خلقتها الآلهة لأنفسها ثم فقدتها ...

∴

زهرتي !.. جزيرة الهناء الدائم ليست في محيطات
الفضاء ... عبثاً تبحث عنك الآلهة في محيطات الفضاء...
جزيرة الهناء الدائم المفقودة لا يعرف مقرها غيري...
ميلي بأذنك نحوي كي أهمس لك بمكانها ...
أتدرين أين جزيرة الهناء الدائم ؟ انها
ليست في محيطات الفضاء ... انها في محيط عينيك ..

٦

عيناك بحيرتان صافيتان ... يسبح في اعماقهما
الحب ... وفي زهرتي ... الحب ...

(باريس ١٩٢٦)

TABLE

VERS LA FIN...

Un sifflement de vent vient comme une plainte
prédisant l'approche de la fin.
Neuf pieds comme des roues
courent emportant les années,
comme des sables dans le vent.
Sauf le chemin.
Quatre pieds.
Puis deux, puis trois
battent les sables du temps
Le mystère de l'éternel sphinx.
Ils avancent assoiffés comme des chameaux.
Tout le long du chemin.

FUMEE

Crocodiles qui voyagent,
en matériel et sacs en peau de crocodile,
avancent dans leur accoutrement scintillant
et versent des larmes de crocodile
et s'étendent pour se réchauffer sur les herbes des
[nuages.

Allez les amis le soir est venu,
et ce soir c'est sa nuit de noces :
ne soyons pas de gens chiches.
Dansons et buvons,
Sur les bords du volcan
qui fume le hachich.

POINT D'INTERROGATION ?

Hennissement de chevaux.
Et son d'épées.
Grondement de tonnerre dans le ciel
et ruissellement d'eau
Battement de vagues sur les rochers
et rugissement de lion.

Ecrasement de verre sur le parquet de palais.
Et chant de rossignols magiques à l'aube.
Hululement d'hiboux de proie.
Pas de fourmis sur des racines de vigne dorée.
Tout cela pour toi :
Pièce de chair ; point d'interrogation ?

LA TASSE

J'ai fixé de mon œil le fond de ma tasse,
et j'ai vu un univers qui se recrée.
Ce résidus au fond a une poussière
qui se perd libre dans un vide qui s'étend.
J'y ai tourné ma cuiller ;
et voilà un tourbillon qui s'agite et tourne
et réunit la poussière,
dans un bloc circulaire.
Et à l'horizon parut un astre qui naît.

POUPEE

Poupée de bois.
Habillée en soie.
Ses tresses sont des rayons de soleil.
Ses paupières de la pluie.
Elle ferme ses yeux et les ouvre,
et le soleil se fâche et se réjouit.
Poupée de bois,
à la vie éternelle.
Car tout ce qu'elle fait,
cest de fermer ses yeux et les ouvrir.

AIR... AIR

Veines d'or d'une montagne.
Montagne qui marche sur un pied.
Pied qui vole sur des roues.
Roues qui roulent sur un marbre.
Marbre d'un temps nuageux.
Nuages d'un terrain d'étoiles.
Etoiles d'un corps d'yeux.
Yeux d'un corps d'étoiles.

Etoiles d'une atmosphère de silence.
Silence de coquillage de mers.
Mers d'une coupe en papier.
Papier qui bout et brûle.
Brûle puis revient.
Revient et court comme un cheval.
Cheval d'un champs de course éclairée.
Eclairée du fond d'yeux.

Yeux d'un monstre dans le vide.
Vide d'une tête ivre.
Ivre de vignes de montagne.
Montagne aux veines d'or.
Or qui rayonne dans l'air.
Air qui engendre de l'air.
Air qui se nourrit d'air.
Air d'une decendance d'air.

MA VERITE

Quel bel éclat à ce broc d'argent,
qui brille comme l'aube entre les mains d'un
[sommelier noir.
Le sommelier nègre s'approche et plonge son
[regard dans le mien
comme un rayon perçant, comme une épée qui
[tranche le silence.
Si un sommelier blanc te sert à boire,
la vérité coule au sein du linceul.
Et si c'est un sommelier noir qui te sert
elle surgit comme un astre à travers les nuages.
Le nègre me pointa de son index :
regarde au fond de ton verre et tu la verras.
J'ai regardé ce fond tout plein d'espoir
Mais ce n'était que mon œil à moi qui me fixait.

UN BAISER

Une monnaie dorée s'en est allée,
tombée en un clin d'œil.
Elle roula sur le marbre rouge du parterre
avec un son doux.
Elle disparut dans un trou.
La servante arrogante dit,

d'un sourire jaune :
Assez ! laisse-moi astiquer le parquet.

CIEL

Un couvercle hermétiquement clos.
Bleu comme l'éternité.
Du bleu de la conscience d'un enfant nouveau-né.
Complètement fermé sur un diamant,
dans un crâne luisant à l'intérieur.
Qui se croit solitaire.
Il dit des mots et vit des amours
et dort longuement avec des yeux inexistants.

PAROLES D'HOMMES

L'univers est blanc, l'univers est blanc.
Perles dans des coupes, qui illuminent les têtes.
Envolée de nuages ; envolée de cygnes et robe de [mariée.
Et la nuit est recouverte d'aube diluée.
Et un mort éternue dans son linceul.
Et une voix se demande vers où le voyage ?
Et un vent souffle sur les voiles,
pour nager dans une mer de chimère.

PAROLES D'ETOILES

L'univers est noir, l'univers est noirs.
Les étoiles se parlent par l'éclat,
pour tromper la peur et résister,
dans la mer profonde de la perdition.
Mer d'encre ;
où nage les oiseaux blancs,
avant de sombrer dans le noir.

VIN

Un ivrogne aux portes du bistrot,
vagabonde fredonnant des airs.
Il vole les bijoux de sa femme,
pour les offrir à sa maîtresse.
Il vole les bijoux de sa maîtresse,
pour les offrir à sa femme.

Qui est sa femme ?
Qui est sa maîtresse ?
Deux visages en conflit dans les ténèbres.
Deux airs qui se confondent sans paroles.

Le timbre du silence retentit dans la coupe du
[temps,
et résonne comme une illusion dans les vers du
[bistrot.

MON PASSE

Respiration matinale de chevaux,
galopant essoufflés au fond de mon âme.
J'entends leur hennissement dans les profondeurs
[de mes jours.
Empêchez-les d'atteindre mon passé.
Ils traversent des nuages qui passent ;
et laisse choir de leurs fers des cratères de feu
[brillantes,
qui plongent dans des yeux noirs,
aux étranges regards des femmes nues,
qui toussent et rient dans le marché des seins.

VUE DE LA-HAUT

Ecoutez oreille écoutez là-bas !
Quel silence lourd et pesant comme un animal en
[sommeil !
Un animal mort sans respiration
C'est le sommeil. Un sommeil qui couvre tout.
Où sont partis nos oiseaux, loin de leurs nids ?
Mais je suis sûr, sûr que ma maison est là-bas.

Ecoutez oreille écoutez là-bas !
N'y a-t-il pas de paroles? N'y a-t-il point de bruit?
Même les murmures et le son des attouchements
[n'existent plus.
Aucune voix à part la mienne venant d'ici.
Où sont nos discussions nos rires et nos chansons?
Mais je suis sûr, sûr que ma maison est là-bas.

Regardez yeux regardez là-bas !
Quelle est cette masse sombre sous vos paupières ?
Est-ce une terre; est-ce une eau ou est-ce le ciel?
Tout est moulu; complètement pétri comme une
[pâte,
dans cet amalgame noir et mystérieux.
Mais je suis sûr, sûr que ma maison est là-bas.

Regardez yeux regardez là-bas !
Quelles sont ces vagues blanches sous vos
[paupières ?
Est-ce du coton battu; est-ce de la fourrure
[d'agneau ?
Pourquoi tout est-il ainsi versé gaspillé,
comme du lait servi sans broc ?
Mais je suis sûr, sûr que ma maison est là-bas

QUI NOUS CHANTE ?

J'entends des voix et ne vois rien.
J'entends la musique des lumières et ne vois rien.
Les gosiers d'une troupe qui chante sans savoir,
de quelle sève ils sont nourris,
ni qui a semé les airs sur leurs lèvres.
Le tout se rejoint pour moi en une parfaite
[harmonie.
Si la création n'est pas poésie que peut-elle donc
[être ?
Si nous ne sommes pas des mots poétiques que
[sommes-nous ?
Qui est-ce qui nous chante ?
D'une seule bouche et notes différentes !

SA FENETRE

Les fleurs de lilas se sont répandues
et sur le mur de l'éternité suspendues.
Couleur senteur et printemps
sont versés sur le monde de son vase d'amour.
Des fleuves de lilas émergent de sa fenêtre
couvrant les déserts de la terre et les vallées de la
[lune.
Tout est noyé par ce printemps ;
et quand elle a fermé sa fenêtre,
mon cœur s'était brûlé.

NOTRE LUNE

Un œil d'or nous regarde
à travers un voile troué.
C'est ce qu'ils disent mais moi je dis
que c'est une dent d'or d'une déesse frivole,
qui nous sourit à pleine nuit.
Les semences des prés lui applaudissent,
et les cœurs lourds en sont allégés.
Mais elle s'en va,
et ne reste d'elle qu'un voile qui s'agite.
Puis s'endort dans la nuit.

MON OISEAU

Si tu es un oiseau,
je suis un ver.
Ton bec fredonne des chants,
que je compose de mes entrailles.
Tu me cherches dans la boue,
mais moi je chante.
Je chante dans ta bouche
et toi tu n'entends pas.
Tu n'entends que ton chant à toi.

EXTASE

J'ai porté ma coupe à ma bouche.
Les graines se répandirent dans la coupe.
J'y ai à peine plongé les lèvres,
et me suis arrêté subitement.
J'ai avalé un astre.
Quand la brume avait couvert la coupe,
et que la neige en devint le sommet,
mon cœur s'en réjouit,
et le coq chanta annonçant une aube nouvelle.

JEUX

Le ciel baille à tout moment
de l'ennui de l'éternité.
et souffle des bulles de savons,
qui brillent de couleurs et de lumières.
Puis les laisse éclater dans le vide.

La grande bouche revient,
de l'ennui de l'éternité,
à meubler son vide.
Revient puis revient puis revient
aux jeux des enfants gâtés.

PRIERE

Cadre d'une image en couleurs
qu'on appelle fenêtre.
Le tableau vivant bouge dans l'espace ;
arbres comme des fantômes d'humains
et des épis de gens qui se meuvent
et un astre brille dans le ciel comme une goutte
[d'eau
et la mer est bleue comme sur les tableaux.

Et le Soleil joue à l'aube
avec sa boite de couleurs à l'horizon
L'art vit tout seul sans artiste ;
et le cœur exhale de ses profondeurs une prière.
Une prière qu'on nomme « émerveillement ».

Ce mot étrange une fois encore
bouleversa les petites créatures :
« Toi, merveille de la nature,
chanteur de la nuit et de l'aurore
tu ne possède pas cette « Justice » ?
« Non, malheureusement, non !
Personne sur la terre
ne possède ce don,
personne dans les arbres
personne au fond des mers.
Peut-être... un seul être
pourrait-il prétendre
à une part minime
de ce fruit divin
pour devenir magnanime :
C'est « l'Etre humain ».

« Regardons un peu là-haut,
il y a un monde de lumière,
le monde des oiseaux
qui vit dans la liberté. »

Le mot « Liberté » jeté dans cette terre
prit un son de tonnerre.
« Pourquoi sommes-nous privés
d'un tel bienfait qui fait
la grandeur du monde volant. »
Ainsi parlèrent les êtres des ténèbres.

Une délégation fut vite formée
parmi les plus sages des fourmis
pour aller demander aux oiseaux
leur secret.

De leurs pas lents
les fourmis grimpèrent un tronc.
Le chemin était long
jusqu'à la cime luisante
où le rossignol vit
et chante
dans son nid.

« Que faites-vous là ? »
demanda l'oiseau chanteur.
« Nous sommes venus d'en bas
en quête de ta grandeur. »

De son chant doux
le rossignol dit :
« Je suis tellement petit
à côté des vautours
qui rôdent aux alentours. »

« Tu possèdes la liberté »
disent les fourmis.
« Oui, en effet, mes petites amies,
mais la liberté n'est qu'une aile
qui ne vole pas seule
dans le grand ciel.
Savez-vous comme on appelle
l'autre aile protectrice ?
La justice.

JUSTICE

Dans le monde des fourmis
du matin au soir
on buvait, on dansait,
pour célébrer une victoire.

Un orateur harangua la foule
évoquant le jour d'un miracle
où les fourmis surmontèrent un obstacle.

Elles sortirent en armée
bien rangée
de toutes les portes
pour traverser les ruisseaux
sur des bateaux
de feuilles mortes.

« Savez-vous, dit-il à ses sœurs,
ce qui fait notre grandeur,
ce qui nous sauve toujours des abîmes ?
La Discipline. »

Un philosophe ricana :
« Pour être grand, il faut être sublime
et nous sommes enfouis sous terre,
ne voyant que l'obscurité.

Et les monts demanderont
un moment pour pleurer
leur force et élévation.
Mais à son cri ils deviendront,
avec leurs vallées et sommets,
comme des bulles de savon.

Puis viendra le tour de la terre.
A ce mot « l'heure à sonné »
elle se mettra à pleurer :
« Où sont-ils mes rois, mes lois,
mes civilisations, ma gloire,
ma science, mon histoire ? »

Et l'ange cruel et sévère
avec son cri de tonerre
engloutira la terre.
Mais... pour la consoler
Il lui soufflera
comme on souffle à l'oreille
d'une voix douce et nette :
« Tu meurs après avoir découvert
les deux grandes merveilles
dont nulle autre panète
ne soupçonne l'existence :
L'Amour et L'Espérance. »

MORT

« Si toutes les eaux des fleuves et des mers
m'étaient versées sur les épaules »,
dit l'ange de la mort,
« pas une goutte ne serait tombée
hors de mon corps. »

« La terre entière dans ma main
ressemble à une pièce de monnaie,
ou à une table riche des mets
destinés à mon dîner. »

Un soir il devra
anéantir les mers.
Il les regardera et dira :
« L'heure a sonné ».
Et les mers le supplieront :
« Attends, ange de la mort,
ne veux-tu nous donner
un moment pour pleurer
nos flots, nos écumes,
nos perles, nos trésors ? »

Mais il lancera son cri terrible
et les mers et les océans
retomberont dans le néant.
Puis il regardera et dira aux monts :
« L'heure a sonné ».

ATOME

Lorsque Dieu
voulut donner
le feu aux hommes,
il ordonna à Gabriel,
l'ange du ciel,
de descendre à l'enfer
demander une flamme
à son gardien.

« Quel poids veux-tu et pour quoi faire ? »
demanda le gardien de l'enfer.
« Le poids d'une pomme,
répondit Gabriel,
suffit à l'homme. »

Et le gardien dit :
« Sais-tu, bon ange,
que ce poids suffit
à réduire en poussière
sept cieux et sept terres ?

« Qu'elle soit donc petite comme une noix ».
Et le gardien d'une voix
lente et hésitante :
« Une flamme de mon enfer
petite comme une noix
pourrait faire
disparaître l'eau du ciel
et sécher les plantes de la terre. »

« Combien donc faut-il prendre,
O gardien du grand feu ? »
Et le gardien répondit :
« Pour servir l'homme
sans le réduire en cendre
prend à peine le poids d'un atome. »

L'AUTRE LUNE

Vers cette lune éclatante
nous partons par une fusée,
nous traversons les nuées
au-dessus des mers écumantes.

Mais on ignore
qu'une autre lune
plus belle encore
reste à découvrir.

Elle n'est pas sur nos têtes,
elle n'est pas une planète
qui nous impose un risque à courir.

Avec quelle fusée
peut-on l'atteindre ?
On ne sait jamais.
On ne pense même pas
à faire un pas
vers cette noble lune.

Elle brille comme un diamant,
elle nous appelle en murmurant,
mais nous lui tournons le dos
pour aller monter là-haut
dans ce voyage de chimère.

Et elle nous dit d'une voix amère :
« Regardez-moi, pauvres humains.
Je suis plus près, plus utile.
Construisez d'abord ce projectile,
enchanté comme un ouvrage de fée,
qui vous emmènera vers moi,
moi qui m'appelle : La Paix. »

LE PREMIER HOMME TUE

Quand Caïn
tua Abel
la terre vierge et belle
trembla.
C'était son premier tremblement.
Le soleil également,
brillant comme un diamant,
s'éclipsa.

Et l'épine poussa
dans la rose
qui devint morose,
et l'eau de la mer
qui était douce
devint amère.

COULEURS

Pour l'homme
une cheval est un cheval,
qu'il soit rouge, blanc ou noir.

Pour l'homme
une fleur est une fleur,
qu'elle soit jaune, mauve ou noire.

Pour l'homme
un homme n'est pas « homme »
s'il n'a pas la même couleur.

CLEMENCE

Au début Dieu créa
la plume.
Il la créa de la lumière
blanche.
Il la créa d'une perle
rare comme un merle blanc.

Perle immense, et longue
comme le chemin entre terre et ciel,
large comme la voie entre l'est et l'ouest.

Il la créa et la regarda
La plume se divisa subitement en deux,
d'un regard respectueux et modeste.
et l'encre coula de son corps brisé
et coulera jusqu'au jugement dernier.

Et Dieu lui dit : « Ecris ».
La plume hésita,
ne sachant quoi écrire.
Et Dieu lui ordonna :
« Ecris mon « Savoir »,
puis écris encore
pour tous les êtres de la terre :
« Ma clémence précède ma colère ».

VOYAGE INTERPLANETAIRE

Toi qui survoles
notre terre chère,
notre mère « Terre »,

Loin de nos maisons,
de nos pigeons,
de notre horizon,

Une fois
nos toits,
nos lois,
dépassés,

Tu mourras
ou tu vivras
dans la faim
ou la fin
d'un passé.

GENEROSITE

Le soleil couchant
à l'horizon mauve
demanda au mont « Mokattam » (1) :
« Pourquoi es-tu si chauve ? »

« J'étais le mont le plus vert,
répondit-il,
et le mieux couvert
d'arbres et de fleurs,
jusqu'à la nuit où le Seigneur
permit à Moïse sa vision
sur un certain mont. »

Les autres monts de la terre
de jalousie protestèrent,
sauf un petit mont de Galilée
qui se montra si humble et docile
que toute sa parure
de fleurs et de verdure
retomba dans la vallée.
Pour le récompenser,
Dieu ordonna à tous les monts
de lui prêter de quoi se revêtir.
Alors, moi, Mokattam
je lui fis donation
de tout ce qui m'aidait
à m'orner et à me couvrir
et je devins moi-même dénudé.

(1) Montagne dans le désert près du Caire.

III

Deux canards,
femelle et mâle,
vivaient leurs jours
beaux et courts
dans une basse-cour.

Et un matin
l'homme, de sa main
insouciante et cruelle,
prit le mâle pour le tuer
devant sa femelle.

La femelle
s'agita
et d'un coup d'aile s'évada
pour aller se jeter
dans le sang répandu
de son mâle immolé.
Puis elle mourut.

II

Deux tombeaux
jumeaux et beaux
s'isolaient dans le désert
comme deux pigeons
égarés par un typhon.

Ils les abritaient,
Elle et lui,
Deux amoureux
Malheureux
dans leurs vies.

Et on y vit cette merveille :
Deux arbres verts
poussèrent de ces deux tombeaux
jumeaux et beaux,
pour s'enlacer
et s'embrasser
avec leurs feuilles
pareilles aux baisers.
On dit que jamais
depuis que l'homme sait aimer
des tels arbres ne poussèrent
dans une telle terre.

AMOUR

I

Au fond de la nuit
une voix de femme
s'éleva vers le ciel :
« Allah, Toi l'Eternel,
au nom de Ton amour pour moi
pardonne-moi. »

Je lui dis :
« Femme égarée et étourdie
par le souci et l'émoi,
prie plutôt
« au nom de mon amour pour Toi. »

« Non, non, dit-elle,
cela n'est point la merveille
la plus grande, la plus belle.
Le merveilleux, c'est que Dieu
le tout-puissant et glorieux
m'imprègne, Lui, et m'inonde
moi, la plus simple et humble du monde,
de Son pur et immense Amour. »

DU MEME AUTEUR

Ouvrages parus en français

Schéhérazade - Poème dramatique

Préface de Georges Lecomte de l'Académie Française (Sorlot, éditeur - Paris 1936)

L'âme retrouvée (Fasquelle, éditeur. Paris 1937)

L'oiseau d'Orient (Nouvelles éditions Latines. Paris 1962)

Un Substitut de Campagne en Egypte (PLON. Terre Humaine) Paris 1974

Théâtre Arabe (Nouvelles Editions Latines. Paris 1950)

Théâtre Multicolore (N.E.L. Paris 1958)

Théâtre de notre temps (N.E.L. Paris 1960)

Cette édition privée et limitée est entièrement destinée aux amis.



Tewfik El HaKim

POEME ARABE